لعبة السلطة في مصر

الطبعــة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

الطّبعَة الثّانيَة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة ، ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس . SHOROK 20175 LE

عادل حمّودة.. يحاور

مُحمّد حَسنين هيْكل

حول

لعبَة السّلطة في مصر

دار الشروق

السّؤال

محمد حسنين هيكل

عندما طلب منى الأستاذ عادل حمودة أن أكتب مقدمة لهذا الكتاب ، وافقت على الفور ـ وكانت تلك استجابة تلقائية للصديق .

وعندما فكرت فى الأمر استعدادًا لكتابة هذه المقدمة ، وجدتنى مترددًا بعض الشىء ، إذ كيف يمكن أن يكتب أحد فى التقديم لكتاب هو نفسه موجود فيه ؟ وكانت تلك استجابة نفسية لحرج يمكن فهم داعيه .

ثم تذكرت أن هذا الكتاب فى واقع الأمر حوار . والعنصر الرئيسى فى أى حوار ليس الجواب وإنما السؤال ، وبالتالى فإن صاحب الحوار الحقيقى هو صاحب السؤال وليس هو صاحب الجواب . فالسؤال هو الذى اختار الموضوع ، واختار التوقيت ، واختار أسلوب العرض بما فى ذلك مواقع التركيز ومواضع التفصيل .

وبما أن صاحب السؤال ، أى صاحب الحوار ـ هو الصديق الأستاذ عادل حمودة ـ إذن فإن الحرج يرتفع عنى فى التقديم للكتاب حتى وإن كنت موجودًا فيه بإجابتى على أسئلته .

إن كون هذا الكتاب سؤالا ـ أو مجموعة أسئلة ـ هو خير تقدمة له ، باستلهام تلك الحكمة القديمة التى تقول : « إن السؤال هو جوهر الفلسفة » ـ وذلك تعريف دقيق . فالفلسفة بالفعل سؤال ملح فى طلب المعرفة وفى البحث عن الوجوه المختلفة للحقيقة .

وأظن أن المجتمعات تظل بخير طالما هى متمسكة بـ « السؤال » . . تسأل عالمها وزمانها ، وتسأل واقعها وظروفها ، وتسأل نفسها وغيرها ، ثم لا تفتر همتها أو ينثنى عزمها عن التفكير فى أسئلة جديدة بلا حدود أو قيود ، غير الحرص على أن تبقى هذه الأسئلة موصولة بالحياة وغير معزولة عنها .

وربما أن الميزة الأساسية فى الشخصية المهنية للصديق الأستاذ عادل حمودة أنه رجل يحمل « سؤاله » معه أينما ذهب . والواقع أنه إذا كان « السؤال » هو جوهر الفلسفة ، فهو أيضًا صميم مهنة الصحافة فى آخر طبعاتها . فالصحافة ، خصوصًا فى الغرب ـ أوروبا وأمريكا ـ تتجه فى معظمها الآن إلى ما يسمونه مدرسة « الصحافة السائلة » أو المحققة investigative journalism ، وهى مدرسة تؤمن بأن الصحافة سؤال .

وهذا صحيح إلى أبعد مدى . والصحيح قبله أن الحياة سؤال ، وأن الفلسفة سؤال ، وأن الحقيقة سؤال ـ وأما الإجابات فهى اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش فى الفضاء !

محمد حسنين هيكل

القاهرة ـ يوليو ١٩٩٥

الجواب

عادل حمّودة

لا أهوى عبادة النجوم . . فالنجوم غالبا تماثيل من « عجوة » نعبدها . . ثم نلتهمها . . إننا نصنع النجوم من خيوط الضوء . . ونرسم صورهم بأشعة الليزر الملونة المتحركة على موسيقى ناعمة . . . وعندما تطفأ الأنوار ويسود الظلام وينصرف الجمهور ، يصبح النجم وحيدًا ، حزينًا ، تشوه دموعه المكياج . . . فقد انتهى العرض ، واحترقت الصورة . . أصبحت « نيجاتيف» . . . « عفريتة » .

لكن . . . هذا النجم من طراز مختلف . . فالضوء يُولد ، ويتكاثر ، وينضج ، وينطلق من داخله . . من عقله . . من أفكاره . . . ينطلق معبرًا عن امتزاج الكلمة بالرؤية . . الحكمة بالجرأة . . الرأى بالخبرة . . والبصر بالبصيرة . . . لذلك ، فهو يزداد بريقًا عامًا بعد عام . . ويزداد نجومية كتابًا بعد كتاب .

إنه محمد حسنين هيكل .

□□

كان القمر مثل مرآة فضية ، تنعكس عليها ـ فى الليل ـ كل معالم القاهرة . . وكل فوانيسها الزرقاء ، والحمراء ، والصفراء ، والبنفسجية . . . وقد أضفت هذه الصورة رومانسية على جماعة من المبدعين والمثقفين والسياسيين ، يبدو كل منهم حريصًا ـ فى الحياة العامة ـ على عدم الاقتراب من الرومانسية . . د. أسامة الباز . . إبراهيم نافع . . د. مصطفى الفقى . . محمود السعدنى . . ومحمد حسنين هيكل الذى فوجئت به يقول لمحمود السعدنى : إنه يقرأ ما يكتبه عن مشاهير قراء القرآن الكريم الذين يرددون « ألحان السماء » ويزرعونها فى القلوب .

كان الحوار ساخنًا حول إيران والسودان والخليج و إسرائيل والإرهاب ومتاعب الحكم

فى مصر . . لذلك . . كان الكلام عن صوت الشيخ محمد رفعت وحنجرته التى خشعت من ذكر الله أشبه بواحة فى صحراء السياسية !

وقد فوجئ محمود السعدنى أيضًا بإطراء هيكل . . فلا أحد تخيل أن كاتبًا سياسيا مثل هيكل ـ يتابع كل ما يجرى فى الدنيا ـ يمكن أن تستهويه سير أئمة القراء .

لكن . . الدهشة سرعان ما تلاشت عندما تذكرنا أن « هيكل » عاش طفولته فى بيت جده لأمه فى حى الحسين . . وأنه تلقى ـ هو وأطفال العائلة ـ دروس تحفيظ القرآن من الشيخ « قاسم » . . وقد قال هيكل فى حواره مع سناء البيسى (مجلة نصف الدنيا) : إن الشيخ « قاسم » كان موظفًا مستديما لدى جدى ، وكان من يحفظ جزءًا كاملاً من القرآن يجازى من الجد جزاءً حسنًا ، فإذا ختم المصحف فنصيبه جنيه ذهبى » .

ولا ينسى هيكل أن جده كان يصحبه إلى سيدنا الحسين ليجلس إلى جواره فى مقصورة المسجد ليستمع إلى مشاهير العلماء والقراء فى ذلك الوقت : الشيخ على محمود ، والشيخ على حزين ، والشيخ محمد رفعت ، والشيخ عبد الفتاح الشعشاعى .

إن هيكل الآن يبدو مثل لورد بريطانى . . فهو لا يستقبل زواره إلا بملابس كاملة . . ويدخن أنواعًا بعينها من السيجار يفهم فيها . . ويلعب الجولف فى الصباح . . ويحرص على حضور مهرجان موتسارت كل صيف فى سالزبورج . . . لكنه فى أعماقه لا ينسى سيدنا الحسين ويحفظ الشعر العربى . . ويهوى أم كلثوم . . ويتذكر أقرب الأصدقاء إليه ـ كامل الشناوى وتوفيق الحكيم .

إنه لورد تمتد جذوره إلى سيدنا الحسين .

□□

وُلد هيكل فى ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٢٣ فى القاهرة . . لكن أصوله تمتد إلى الصعيد . . إلى بلدة ديروط الشريف . . . « أتيناها قبيلة من بلاد العرب عبرت ، وتركت فروعها فى كل مكان حتى استقرت فى صعيد مصر ، ثم هاجر جدى لأبى إلى الشمال وجاء والدى بتجارته إلى القاهرة » ـ سناء البيسى المصدر السابق .

ويستطرد هيكل :

« كان أبى يخطط لمستقبلى ، وخطته أن أكون فى خدمة العلم ، ونذرنى للأزهر . وانتظمت أولا فى التعليم الأولى حتى حان الوقت للأزهر ، وكان لى أخوة أكبر منى من زوجة طيبة سابقة من الريف ، وكان إخوتى يعملون معه فى تجارته . كان ذلك ما تفعله عادة أسر الطبقة المتوسطة فى مجالات الزراعة والتجارة . . . الجيل الأول من الأبناء مع الآباء ، والجيل الثانى للعلم والدين ، والجيل الثالث لوظائف الحكومة . . . وتمنت أمى لى مستقبلاً آخر . . وما إن سافر أبى فى رحلة لمدة خمسة عشر يوما ، حتى سارعت بالاتصال بأخيها واتفقا على أن ألتحق بالمدرسة الأميرية . . وبالفعل . . وهنا أتذكر صورة مشوارى صغيرا معها فى وسط البلد لمحل اسمه « بلاتشى » حيث اشترت لى بدلتين جديدتين مع المناسبة الجديدة . وبعدها بأيام كنت أجلس تلميذًا فى سنة أولى بمدرسة « خليل أغا » . . . أمى عملت انقلابا جذريا فى حياتى » ـ المصدر السابق .

□□

كانت مدرسة « خليل أغا » تابعة للخاصة الملكية . . وفيها عرف هيكل رفيق دراسة التقيا واختلفا فيها بعد ، هو إحسان عبد القدوس . . . « أقول عرفته بمعنى رأيته ، فحين وقعت عيناى عليه لأول مرة كنت تلميذًا فى السنة الأولى وكان هو فى السنة الرابعة ، وكانت أعداد التلاميذ فى مدارس ذلك الزمان صغيرة ، وكان طابور الصباح فى فناء المدرسة المربع ملتقى لتجمع كل الفصول ، وكان ترتيب الوقوف فى طابور الصباح يضع تلاميذ الصف الداخل إلى المدرسة حديثًا بقرب الصف الذى يوشك على تركها ، فأحدهما بداية والآخر نهاية . . ومع أضلاع المربع المصطفة ، فإن طرفى البداية والنهاية كانا على نقطة تماس . . وكان طابور الصباح يحتوى على مراسم طويلة : أناشيد وتمارين وتفتيش على مكواة المرايل السوداء فوق ملابس المدرسة ، وعلى ترتيب الكتب والكراريس فى الحقائب ، وعلى درجة لمعان الأحذية ، وعلى نظافة الأظافر . . . وبالطبع ، فإن هذا الطابور الذى اعتدنا امتداده إلى قرابة نصف الساعة كل يوم كان يتيح لكل تلميذ أن يلف بالبصر على بقية الصفوف وأن يعرف من فيها أو يعرف عنهم» . . وهكذا . . عرف إحسان عبد القدوس أو عرف عنه .

وقد كان قدرهما أن يعملا معا فى « روز اليوسف » . . أول مطبوعة صحفية دخلها

هيكل . . وحسب روايته . . فقد التقى بالسيدة روز اليوسف فى مطعم « الباريزيانا » ، وكانت دائمة التردد عليه لتناول الغداء . وكان واسطة التعارف فيليب حنين المحرر المسئول عن الشئون المحلية فى صحيفة « الإجيبشيان جازيت » الذى قدم لها هيكل . . . . « ثم لقيناها أكثر من مرة . وكانت هذه السيدة ذات الشخصية القوية ، كريمة فى تشجيعها لصحفيين مبتدئين . . . ودعتنا إلى مائدتها مرات ، ثم دعتنا إلى مجلتها . . وهناك كان لقائى الأول مع الصحافة العربية » .

فى روز اليوسف كانت مقالات هيكل يغلب عليها الطابع الأدبى . . وهذا طبيعى فى مدرسة صحفية تؤمن بالكتابة فى الهواء الطلق . . لذلك لم يكن مثيرًا للدهشة أن يكتب هيكل فى عدد ١٩ يونيو ١٩٤٤ عن غرامه الأول لبنت الجيران الذى لم ينسه . . وقد كان يشترى لها الشيكولاته بكل مصروفه حتى ترضى .

بعد حوالى ١٠ سنوات على نشر المقالة ـ وبالتحديد فى ٢٧ من يناير عام ١٩٥٥ ـ تزوج هيكل .

وبعد ٥٠ سنة بالضبط . . أى فى سنة ١٩٩٤ دخل هيكل روز اليوسف من جديد ، بعد أن تركها إلى « آخر ساعة » ثم « أخبار اليوم » ، ثم « الأهرام » . . . لكنه دخلها نجما لامعًا يتحدث على صفحاتها . . أو يتحدث فى صالون إحسان عبد القدوس .

وكان أهم ما قال :

١ ـ إن الظروف ظلمت الجيل الذى جاء بعدنا رغم أن كثيرين فيه تفوقوا ونجحوا فى تجاوز الظروف . ففى حين أننا ـ جيلنا ـ كنا نعمل ونتحرك فى إطار الحقبة الوطنية والقومية التى قادتها مصر ، وطرحت جدول أولوياتها ، وبينما كنا نتفق أو نختلف على هذا الجدول ، ونصطدم أو لا نصطدم مع السلطة التى تولت تفسير وتنفيذ مرجعياته وأولوياته ـ فإن الجيل الذى جاء بعدنا وجد نفسه أمام حقبة أخرى .

٢ ـ إن الحقبة الوطنية القومية . . وقد عبرت عنها مصر ـ راحت تتراجع من سنة ١٩٦٧ . ومن المفارقات أنها بدلا من أن تعود إلى التقدم بعد سنة ١٩٧٣

واصلت تراجعها لأسباب كثيرة ومعقدة . وقد انفسح المجال بعدها ـ بعد هذه الحقبة المصرية ـ إلى حقبة سعودية بدأت إطلالتها الأولى بالضبط سنة ١٩٦٧ حين تقدمت السعودية مجموعة الدولة النفطية إلى دعم دول المواجهة . . ثم تحولت هذه الإطلالة إلى وجود مؤثر بعد ١٩٧٣ وقفزة أسعار البترول الخرافية .

٣ ـ كان هناك ظن أن موارد البترول وفوائض عوائده تستطيع تكملة ما بدأه السلاح ولم تكمله السياسة سنة ١٩٧٣ . ثم جاءت حرب لبنان واحتلال بيروت ، وظهر أن البترول وفوائضه أضعف من مسئولية الحق العربى . ثم جاء غزو الكويت فكشف أن البترول وفوائضه أضعف من مسئولية نفسه ذاتها . . . فى بيروت كان النفظ عاجزًا . . وفى الخليج بدا النفط عاريًا .

٤ ـ وهكذا فإن الحقبة النفطية ما لبثت أن توارت حتى بالتردد وقلة الثقة بالنفس وضعف القدرة على الفكر والفعل ـ لكى تفسح المجال للحقبة التى بدأت بوادرها بالفعل ، وهى الحقبة الإسرائيلية . فالقوى القومية فى المنطقة منهكة ، والقوى النفطية لا تقدر ، والمجال مفتوح أمام من يستطيع أن يفرض أمرًا واقعًا .

٥ ـ إننى لا أنسب إلى إسرائيل مقدرة صنع المعجزات ، ولا أبالغ فى قوتها ولا أعطيها أكثر من وزنها ، لكنها فى هذه اللحظة ـ وهى لحظة أثق أنها مؤقتة وقصيرة العمر ـ استطاعت أن تكون هى الطرف الإقليمى الذى يضع جدول أولويات المنطقة ابتداء من فصل دول مشروع النظام العربى عن بعضها والبحث عن تسوية مع كل منها على حدة، إلى توقيتات كل خطوة مهما كانت محدودة .

٦ـ الذى يغيب عن فكرنا وتفكيرنا أحيانًا أننا لسنا أمام مجرد سوق شرق أوسطية لا يعقل ولا يصح أن تهيمن فيها إسرائيل . . الحقيقة أننا أمام خريطة كاملة للمنطقة كانت هى هدف إسرائيل ، وليس مجرد سوق شرق أوسطية . . الخريطة تقضى بتمزيق أوصال الأمة : غرب فى شمال إفريقيا يلتحق بأوروبا عبر البحر المتوسط ، وهذا يحدث فعلاً . . وشرق وراء سيناء فى الشام التاريخية . . وهذا هو موقع السيطرة الإسرائيلية ومطلبها . . ثم تتجمع دول

الخليج النفطية كلها أو تتبعثر هناك على سواحله غنيمة مباحة للأقوياء القادرين .

٧ ـ ومصر وسط هذه الخريطة معزولة عن أمتها . . ليست مطلوبة للبحر المتوسط مع شمال إفريقيا . . ولا للشرق الأوسط مع الشام . . ولا الخليج .

٨ ـ والبعض يشير إلى مصر أحيانًا وكأنها مطلوبة لدائرة الشرق الأوسط بالذات . وفضلاً عن أنى أشك فى وجود هذا الطلب ، فإن مصر فى دائرة الشرق الأوسط قوة فى المرتبة الرابعة على أكثر تقدير : قبلها تركيا وقبلها إسرائيل ، وأخشى أن أقول وقبلها إيران أيضًا .

٩ ـ إن العقدة ليست أن إسرائيل قوية بحيث إنها تهيمن اقتصاديًا وعسكريا وفكريًا ، ولكن العقدة هى إضعاف المنطقة بحيث تصبح الهيمنة عليها ممكنة . وهكذا . . .

ترك هيكل روز اليوسف أديبًا ، وعاد إليها سياسيا . . محللاً . . وبين الغياب والحضور نصف قرن من الزمان كوّن هيكل فيه اسمه وشهرته وحافظ عليهما .

وقبل هذه الندوة ـ التى أطل منها هيكل على العالم عبر روز اليوسف ـ وبعدها جرت بينى وبينه حوارات ساخنة ، كانت أيضًا مثار اهتمام العالم . . وقد امتدت هذه الحوارات لتشمل كافة الهموم الوطنية والقومية . . من نظام الحكم إلى شرعية السلطة . . ومن الإرهاب إلى الفساد . . من أفغانستان إلى السودان . . ومن إسرائيل إلى أمريكا . . ومن الحكومة إلى رئاسة الجمهورية . . كما أنها راحت تتناول بالفحص والتقييم حكامًا بعينهم . . جمال عبد الناصر . . أنور السادات . . حسنى مبارك . . معمر القذافى . . ياسر عرفات . . جورج بوش . . و بيل كلينتون .

وكل ما كنت أفعله هو اختيار السؤال واختيار التوقيت . وأحمد الله أن الأستاذ هيكل قد رفع شأن السؤال إلى الحد الذى وصل إليه فى مقدمته .

ولا أريد بدورى أن أرفع شأن الجواب . . فقيمة الجواب تتوقف على قيمة المجيب .

وقد قيل فى قيمة هيكل الكثير . . لكن من وجهة نظرى ، أتصور أن قيمته مصدرها أنه كاتب لم يعد يكتب إلا لوجه الحقيقة . . لا يبحث بما يكتب عن منصب . . أو جاه . . أو نفوذ . . ولا يغازل بما يقول سلطة أو سلطانا .

ثم إنه إلى جانب هذه الاستقلالية ، يعرف مادته جيدا ، ويتابع ما يجرى أولا بأول ، ولا يفصل الجزء عن الكل . . ولا الماضى عن الحاضر .

ثم إنه إلى جانب هذه المعرفة ، يعرف فضيلة الاختيار . . فهو يختار أفكاره وألفاظه بعناية . . ويختار جمهوره وتوقيته بعناية . . والاختيار جزء من المعرفة .

إن الجواب يصبح أكثر أهمية عندما يكون المجيب هو محمد حسنين هيكل . . ولو لم يكن هو المجيب ، فإننى ما كنت قد فكرت فى نشر حوارات أجريتها لصحف ومجلات عديدة مع شخصيات متنوعة ـ فى كتاب . وبعد هذه المقدمة التى طالت . . هذه هى حواراتى مع واحد من أهم رجال العصر . . محمد حسنين هيكل .

عادل حمودة

مصر الجديدة ـ صيف ١٩٩٥

١

ماذا لو نجحت عمليّة اغتيال مبارك؟

- ليس صحيحًا أن الفزع من الحادث مبايعة لما هو كائن .. إنه الخوف مما سيكون
- بعد عودة مبارك سالما ، وظفنا اللحظة العاطفية فى استمرار الأوضاع القائمة ، وهذا هو الخطر
- يجب أن تهدأ حركة المشانق ، فليس من حق القانون القتل قبل التحقيق
- هناك ٣ بؤر متوترة تؤثر على أمننا القومى : السودان وأفغانستان وإسرائيل
- ٤ شروط للحرب مع السودان
- تصرفنا فى الإعلام على طريقة مشايخ الخيام
- لا يجوز أن نهدد بسلاح لن نستعمله .

كان الجو فى العاصمة الأثيوبية ملبدًا بالغيوم ، والسماء حبلى بالأمطار . . فقد بدأ موسم الصيف ، والسيول التى تنهمر من المرتفعات القريبة من أديس أبابا لتصب فى النيل الأزرق ، ومنه إلى نهر النيل . . الذى يحمل الخير والحياة إلينا . . فى مصر .

لكـن . .

فى صباح يوم الاثنين الماضى كانت الغيوم حبلى بالشر ، وتنذر برائحة الغدر . . والموت . . فى هذا الصباح . . الذى حجبت السحب عنه الشمس . . جرت محاولة اغتيال الرئيس حسنى مبارك ، بعد وصوله إلى أديس أبابا بدقائق محسوبة .

كان الرئيس مبارك حريصًا على هذه الزيارة لحضور القمة الإفريقية رقم « ٣١ » . . وقد أصر على ذلك رغم أن التقارير الأمنية أكدت أن الأوضاع فى أثيوبيا ليست مطمئنة . . فلم يكن من السهل أن يعتذر رئيس دولة إفريقية هامة مثل مصر عن حضور القمة الإفريقية التى تولى رئاستها أكثر من مرة .

كانت مدة المؤتمر ثلاثة أيام . . لكن الرئيس مبارك قرر اختصار مدة زيارته لأقل من ٢٤ ساعة ، على أن يتولى رئاسة الوفد المصرى بعد ذلك وزير الخارجية عمرو موسى . . وهكذا . . أقلعت طائرة الرئيس (طراز إيرباص) من مطار القاهرة فى فجر يوم الاثنـين، وكان معـه على متنهـا د. ذكريا عـزمى رئيـس الديوان ، وعمرو موسى ، ود. أسامة الباز المستشار السياسى للرئيس ، ود. زكى أبو عامر وزير مجلسى الشعب والشورى ، ود. رضا شحاتة سكرتير الرئيس للمعلومات . . وكان مقررًا أن يلقى الرئيس كلمته أمام المؤتمر ، ويجرى بعض اللقاءات . . ثم يعود فى اليوم نفسه إلى القاهرة .

□□

كانت اجتماعات منظمة الوحدة الإفريقية قد بدأت على مستوى وزراء الخارجية يوم الأربعاء ٢١ يونيو ، وسبقها إعداد تحضيرى على مستوى السفراء لمدة أسبوعين . . وهكذا راحت الوفود الدبلوماسية تتوالى على العاصمة الأثيوبية . . فى يوم الثلاثاء ٢٠ يونيو ، وصل السفير سعيد رفعت مساعد وزير الخارجية للشئون الإفريقية ، ومعه السفير محمد عاصم مدير شئون شرق إفريقيا والمرشح سفيرًا لمصر فى أثيوبيا خلفًا للسفير الحالى الدكتور مجدى حفنى .

وفى اليوم التالى ، وصل عمرو موسى على متن طائرة خاصة ، وحضر اجتماعات وزراء الخارجية حتى يوم ٢٣ يونيو . . ثم عاد إلى القاهرة على متن طائرة وزير خارجية الجزائر ليكونا فيها وقت زيارة الرئيس الجزائرى لمصر .

فى اليوم نفسه وصل إلى أديس أبابا مقدمة وفد الرئاسة مكونة من مسئول مالى وإدارى . . ومسئول من أمن الرئاسة . . وقد قاما مع رجال السفارة بالإعداد التفصيلى لزيارة الرئيس . . البروتوكول ، والبرنامج ، والاستقبالات ، وإعداد الركب فى الوصول والمغادرة ، والتعرف على الأسلحة التى يصرح للحراسة المصرية بحملها . . وقد أسفرت المفاوضات مع الأمن الأثيوبى عن الاكتفاء بحمل خمس قطع سلاح فقط للحراسة المصرية الخاصة دون تحديد لنوعها ودون تحديد لعدد الطلقات .

وتقرر أن ينزل الرئيس فى السفارة المصرية ، وليس فى « قصر الرؤساء » ، كما حدث فى زيارته السابقة . . وحيث ينزل معظم رؤساء الوفود . . و « قصر الرؤساء » أشبه بقرية سياحية فيها مبان متفرقة مثل الشاليهات ، يخصص لكل رئيس واحد منها ، على أن ينزل المرافقون فى « الفندق الكبير » . . الفندق الوحيد المناسب لكبار الضيوف فى العاصمة الأثيوبية .

فى اليوم التالى (الأحد ٢٥ يونيو) هبطت مطار أديس أبابا (مطار بولى ـ BOLE) طائرة نقل حربية مصرية (طراز هيركل ـ سى ١٣٠)، وهى تحمل السيارة «الليموزين» المصفحة ضد الرصاص الخاصة بالرئيس . . وهى سيارة مرسيدس سوداء موديل (٥٦٠) . . وكان معها من القاهرة سائق . . وميكانيكى . . وخبير مفرقعات . . كان ذلك فى الساعة الثامنة والنصف مساء ، وكان فى استقبالها قنصل مصر العام فى أثيوبيا

د. عادل عبد اللطيف . . وكانت سلطات البروتوكول الأثيوبية قد أبدت دهشتها من إصرار الأمن المصرى على أن يركب الرئيس سيارة تأتى من القاهرة . . ووافقت على إحضار السيارة على مضض. ووافقت على مضض أيضًا على أن يقودها سائق مصرى .

والسيارة ليست فقط ضد الرصاص ، بل ضد الألغام الأرضية ، ومحصنة ضد صواريخ الـ « آر. بى. جى» والبازوكا ، والزجاج مضاد لطلقات المسدس فقط ، ولكن يمكن اختراقه بالرشاشات . ويمكن للحارس داخل السيارة إطلاق الرصاص ، بينما يستحيل دخول الرصاص عبر الزجاج من الخارج . . أما إطارات السيارة فلا يمكن اختراقها بالرصاص ، كما أنها لا تحمل أى هواء مثل الإطارات العادية ، ومن ثم لا يمكن تفريغها . .

وعندما نزلت السيارة أرض المطار ، أصر الأثيوبيون على أن يفحصها خبير مفرقعات من جانبهم ، ووافق المصريون ، وجرى الفحص فى حضور خبير المفرقعات المصرى . . ثم خرجت السيارة من المطار إلى السفارة المصرية ، حيث بقيت هناك حتى صباح اليوم التالى حينما خرجت لتكون جاهزة عند وصول الرئيس بالقرب من طائرته .

فى صباح يوم الاثنين . . يوم الحادث ، تجمع فى السفارة المصرية فى الساعة السادسة صباحًا خبراء الأمن والمفرقعات ، وقاموا بالكشف على كافة السيارات التى ستكون فى ركب الرئيس . . ووضعت ملصقات تحمل اسم « مصر » على السيارات ، قدمتها السلطات الأثيوبية .

فى الساعة السابعة والنصف كان أعضاء البعثة الديبلوماسية المصرية فى المطار . . وسمحت السلطات الأثيوبية بدخول السفير والقنصل ، وسكرتير أول ، وبدخول مقدمة وفد الرئاسة . . وفى هذا التوقيت بدأ العد التنازلى .

□□

وصلت طائرة الرئيس فى موعدها المحدد بالضبط . . الساعةالثامنة إلا ربعا صباحًا . لكن السلطات الأثيوبية استبقت الطائرة فى الجو لمدة ربع ساعة لحين وصول ملس زناوى رئيس الحكومة الانتقالية فى أثيوبيا .

فى الساعة الثامنة تمامًا ، هبطت طائرة الرئيس . . وفور نزول الرئيس منها ، اتجهت إليه سيارة مرسيدس أثيوبية لتقله من أسفل الطائرة إلى حيث يقف الرئيس ملس زناوى استعدادًا لبدء مراسم الاستقبال . . وقد اقتصرت مراسم الاستقبال ـ كما فى مؤتمرات القمة الأفريقية عادة ـ على عزف النشيد الخاص بمنظمة الوحدة الإفريقية . . ثم اتجه الرئيسان إلى استراحة كبار الزوار ، وجلسا معًا لمدة عشر دقائق . . بعدها خرج الرئيس مبارك ليستقل سيارته المرسيدس المصفحة . . ثم انطلق الركب متجهًا إلى السفارة المصرية .

كان الركب مكونًا من عدة سيارات كالتالى :

- سيارة شرطة أثيوبية (ماركة أوبل) .
- ثم سيارة الرئيس .
- ثم سيارة ميتسوبيشى برجيرو (٤ × ٤) ، كان فيها حراسة الرئيس الخاصة .
- ثم سيارة مرسيدس أثيوبية ، حكومية ، فيها عمرو موسى وأسامة الباز .
- ثم سيارة مرسيدس أخرى مشابهة ، فيها د. زكريا عزمى ، ود. رضا شحاتة .
- ثم سيارة ثالثة من الطراز نفسه تحمل باقى أعضاء الوفد المصرى .
- ثم سيارة السفير المصرى ، وهى مرسيدس سوداء (طراز ـ ٢٠٠) ، ولم يكن السفير يستقلها .
- ثم سيارة مرسيدس فاتحة اللون ، قديمة الموديل ، عمرها أكثر من عشر سنوات .

وكان بصحبة الركب ثلاثة موتوسيكلات ، خرجت به من أرض المطار فى الساعة الثامنة والنصف ، ليتجه إلى قلب العاصمة الأثيوبية ، حيث السفارة المصرية .

□□

أثيوبيا دولة قديمة يعود تاريخها إلى ألفى عام ، وهى تغطى مساحة جبلية تبلغ ٤٧٢ ألف ميل مربع بين البحر الأحمر فى الشمال ، وكينيا فى الجنوب . . ولها حدود مفتوحة فى الغرب مع السودان ، تمتد إلى ٤٤٠٠ ميل . . ويعتبر نصيب الفرد من إجمالى الناتج القومى أقل منه فى أى بلد إفريقى آخر . . كما أن نسبة الأطباء والسيارات لكل

ألف مواطن أقل هى الأخرى منها فى أى دولة إفريقية . . ولعل الفقر المزمن الذى يعيشه الأثيوبيون هو الذى يدفع بعضهم لفعل أى شىء ، بداية من الدعارة وحتى التورط فى مؤامرات الاغتيال وأعمال المخابرات . . كمرتزقة .

وهى نتيجة لحالة الفوضى التى تعيشها أثيوبيا ذات الثمانين قومية المختلفة فى الديانة واللغة ، مما أدى إلى انتشار الجريمة ، وأصبح وجود أسواق للسلاح على حدود العاصمة نفسها ، أمرًا طبيعيا حيث تتوافر الأسلحة ذات الصناعة الأمريكية والروسية ، وتتنافس القبائل هناك فيما بينها على امتلاك أحدث وأكبر عدد من الأسلحة النارية ، وبخاصة القبائل التى تعتمد على الرعى ، وهى تمثل ٣٠٪ من السكان .

وتقع العاصمة فى قلب البلاد ، ويعيش فيهاحوالى مليونى نسمة من جملة السكان الذين يصل عددهم إلى حوالى ٥٥ مليون نسمة ، نصفهم من المسيحيين الأرثوذكس يتبعون الكنيسة المصرية . . و ٤٠٪ منهم من المسلمين ، فضلاً عن ١٠ آلاف يهودى يعيشون فى مدينة جوند فى الشرق ، بينما تم نقل يهود الفلاشا إلى إسرائيل فى العملية التى أثارت كثيرًا من الاهتمام العالمى أثناء ولاية الرئيس السابق منجستو .

والعاصمة مدينة متواضعة وإن بدت ملامح العمران الحديثة تظهر عليها ، خاصة بالقرب من المطار . . فى حى « بولى » الراقى الذى كان أول منطقة يمر عليها ركب الرئيس .

□□

خرج ركب الرئيس إلى طريق المطار ، وهو شبيه بطريق العروبة فى القاهرة . . يتكون من طريق مزدوج فى اتجاهين بينهما جزيرة ضيقة . . وقد أغلق الاتجاه المؤدى إلى وسط المدينة ، واقتصر استخدامه على سيارات الوفود المشاركة فى القمة ، وعلى السيارات الرسمية والحكومية . . أما الاتجاه الثانى (من وسط المدينة إلى المطار) فقد استخدم كطريق مزدوج للمرور العادى .

وحسب الرواية الرسمية ، فإن الرئيس كان يجلس فى سيارته وإلى جواره الوزير الأثيوبى المرافق . . وهو عبد المجيد حسين ، وزير التعاون الخارجى ورئيس حزب

«التجمع الصومالى الديمقراطى » . . وقد جرى بين الرئيس والوزير حوار خاطف حول الوضع الراهن فى أثيوبيا . . ووحدة أراضى الصومال . . والموقف المتوتر فى بورندى . . حيث كانت مقابلة الرئيس البورندى تتصدر قائمة مقابلات الرئيس مبارك . إن هذا الحوار لم يستغرق سوى ٣ دقائق ، قطعت السيارة خلالها حوالى ٥٠٠ متر فقط .

ولكن الحوار الذى تركز على اضطراب الأمن ، ساهم على ما يبدو فى عدم دهشة الرئيس لأول وهلة من الهجوم الذى تعرض له ، فقال : « سمعت طأطأة . . قلت هم بيضربوا فى بعض ولا إيه ، لأن عندى فكرة إن فيه مشاكل » . .

قبل هذا الخاطر الذى جال فى ذهن الرئيس بثوان بدأت العملية . . جاءت سيارة «تويوتا » طراز « لاندكروز » من الطريق العكسى (وسط المدينة . . المطار) ، واندفعت بسرعة لتقفز فوق الجزيرة التى فى وسط الطريق ، وتعترض سيارة الرئيس ، بعد أن تركت سيارة الشرطة الأثيوبية تمر .

نزل من السيارة « تويوتا » بعض الشبان يصعب الجزم بعددهم . . وإن كانت أدق التقديرات تشير إلى أن عدد المشتركين فى العملية هم ١٥ شخصًا . . وقد كان المهاجمون منهم على بعد ١٥ مترًا فقط من سيارة الرئيس . . وفى ثوان دخلت مسرح العملية سيارة أخرى . . فولفو فضية اللون . . ميتاليك . . وسيارة تويوتا ملاكى . . لكن شهود العيان لم يلحظوا السيارتين إلا فيما بعد .

□□

وقعت العملية بالقرب من مقر السفارة الفلسطينية ، وكان السفير الفلسطينى سمير رجب راضى على وشك التحرك لاستقبال الرئيس ياسر عرفات . . وقد أصيب السفير الفلسطينى بثلاث رصاصات طائشة اخترقت واحدة منها ساقه اليسرى ، وخدشت رصاصتان ساقه اليمنى ، وقد نُقل على الفور إلى المستشفى الروسى ، وتولى علاجه أطباء أمريكيون أصبحوا يسيطرون على المستشفى بعد سقوط حكم منجستو .

والمثير للدهشة أن السفير الفلسطينى نجا من موت محقق فى أحداث أيلول الأسود فى عمان فى سبتمبر ١٩٧٠ ، عندما اختبأ فى السفارة المصرية هناك . . ويشاء القدر أن يصاب بعد ربع قرن فى أديس أبابا .

والسفير الفلسطينى كان عضوًا فى جيش التحرير الفلسطينى الذى كان مقره «مدينة نصر» . . حيث تلقى تدريبه .

□□

فى هذا الاضطراب المفاجئ ، استطاع سائق الرئيس الخاص أن يُوقف السيارة قبل أن تصطدم بسيارة الجناة . . وفى هذه اللحظة قال له الرئيس : « لف وارجع » .

لكن . . الوزير الأثيوبى المرافق للرئيس ، قال لصحيفة « الحياة » فى يوم الجمعة ٧ يوليو ١٩٩٥ : « إن الحادث وقع على بعد ٨٠٠ متر تمامًا من المطار، وإن سيارة الرئيس مبارك توقفت بشكل فورى عندما تمكنت سيارة « لاندكروز » من قطع الطريق والدخول بين سيارة الرئيس وطليعة الموكب المؤلف من سيارات للأمن الأثيوبى ودراجات نارية» .

وأضاف : اعتقد السائق للوهلة الأولى أن هناك حادثًا ، كذلك اعتقد شرطى المرور أن سيارة اللاندكروز تعطلت ، فراح يدفعها من الخلف . وخلال ثوان ، خرج خمسة إرهابيين من السيارة وأخذوا يطلقون النار بغزارة . عندئذ سأل الرئيس مبارك : إيه ده؟ . . إيه ده ؟ . فقلت : يبدو أنهم إرهابيون ياسيادة الرئيس . وقلت للسائق بالعربية : ارجع إلى الخلف .لكنه تجاهل طلبى ، وتقدم قليلاً إلى الأمام وكاد أن يقع فى مرمى النيران . لكن الأمن الأثيوبى تدخل بسرعة من أمام الإرهابيين ومن ورائهم مما أدى إلى تشتيتهم وإصابة اثنين منهم ومنعهم من التركيز » .

عاد السائق إلى الوراء بضعة أمتار . . ثم بقوة وجرأة قفز فوق جزيرة الشارع وأخذ الطريق العكسى إلى المطار . . حيث كانت إجراءات دخول باقى أعضاء الوفد المصرى لم تكن قد انتهت بعد . . وحيث كان من السهل سماع أصوات الرصاص قادمة من مكان الحادث . . أما سيارات الركب الأخرى فقد اصطدمت بعضها ببعض باستثناء السيارة المرسيدس الأثيوبية التى كان يستقلها عمرو موسى وأسامة الباز . . وسيارة الحراسة المصرية ، ولم يكن بها معظم رجال الحراسة . . فقد كان ٣ منهم منشغلين بمطاردة الإرهابيين ، بينما قفز الرابع ليحتل مقعد قيادة السيارة بعد فرار السائق الأثيوبى . وأقلت السيارة الحارس الذى يقودها ، وحارسا آخر ، وانطلقا بها خلف سيارة الرئيس لحمايته .

كان أغلب الجناة يرتدون بنطلونات جينز ، وهم صغار السن ، تجاوزوا العشرين بقليل . . وقد تعامل معهم الحرس الخاص بالرئيس « بسرعة البرق » . . و « سرعة البرق » هو الوصف الذى أجمعت عليه المصادر الصحفية المصرية والأجنبية وهى تتناول رد فعل الحرس الذى كان خاطفًا فى التعامل مع الجناة دون أن يبحثوا عن سواتر تحميهم .

وقد نتج عن هذا التصرف الجرىء مقتل اثنين من المهاجمين وإصابة ثالث ، وهو ما أفقد المهاجمين إحساسهم الزائد بالثقة فى النفس الذى كان يسيطر عليهم وهم يطلقون النار ويقتربون من سيارة الرئيس .

إن التدريب الراقى للحرس الخاص يفترض سرعة رد الفعل فى التعامل مع أى هجوم بما يصعب قياسه بأجهزة التوقيت العادية . . وهو ما حدث . . لكن . . يضاف إلى ذلك أن إحساسًا بالقلق قد سيطر على المرافقين للرئيس وهم فى المطار ، وهو ما ضاعف من الانتباه المبكر للحرس . . فقد جرت فى المطار محاولات لتعطيل الحرس . . ولنزع معظم أسلحتهم . . مما عطل الركب حتى انضمت سيارة الحراسة إليه .

كذلك . . فإن التقديرات المتقدمة عن الخطر المتوقع على حياة الرئيس ألقت بظلالها على الجميع . . وكانت هذه التقديرات تشير بوضوح إلى احتمال تعرض الرئيس للخطر أثناء الموكب . . وفى مقر إقامته . . ومن ثم تقرر أن تكون كل المعلومات عن خط سير رحلة الرئيس سرية . . وفى الوقت نفسه كان رجال الحراسة يتصرفون بانتباه ويقظة الصقور .

□□

كان رجال الحراسة فى موقع الحادث يتعاملون مع الجناة ، بينما كانت سيارة الرئيس تدخل مندفعة إلى المطار . . كانت السيارة بها آثار طلق نارى فى مقدمتها (الكبوت) ، وآثار ٣ طلقات على سطحها ، وآثار ٣ طلقات أخرى على الباب الأمامى فى الجانب الأيمن . . وتؤكد بعض المصادر أن عدد الطلقات التى أطلقت على سيارة الرئيس بلغ ١٢ رصاصة لم يصبها سوى ٧ منها .

صرخ أحد أفراد الحراسة فى المطار : « كل الوفد يرجع على مصر » . . وخرج الرئيس من سيارته محاطا بحراسة محكمة ، جيدة التسليح ، ومتحفزة . . ودخل الرئيس قاعة كبار الزوار . وحاول الحرس الأثيوبى منع الحرس المصرى من الدخول ، فحدث اشتباك بالأيدى بين الطرفين ، وتدخل رجال السفارة المصرية وأبعدوا الحرس الأثيوبى .

كان الرئيس الأثيوبى لا يزال فى قاعة كبار الزوار ، وكان مضطربا على حد وصف الرئيس مبارك الذى أضاف : إننى هدأته !!

لقد بدا الحوار بين الرئيسين مثيرًا للدهشة . . الرئيس الذى تعرض للاغتيال هو الذى يهدئ من اضطراب الرئيس الذى كان يجلس فى قاعة فاخرة ، مكيفة !!

قبل أن يغادر الرئيس مبارك المطار ، كان هناك من يصيح :

ـ استنوا . . فيه ثلاثة وزراء مصريين . . مفقودين !

فى اصطدام السيارات بعضها ببعض خرج بعض المسئولين فى الوفد المصرى من سياراتهم . . ولحقوا بالرئيس سيرًا على الأقدام ، منهم د. زكريا عزمى ، ود. زكى أبو عامر . . وغيرهما .

لم تكن طائرة الرئيس فى حاجة للتزود بالوقود . . ومن ثم ، أقلعت فور وصول كل أعضاء الوفد . . أما عمرو موسى ، فقد بقى فى أديس أبابا ليرأس وفد مصر فى القمة الإفريقية ، وبقى معه بعض الحرس وبعض القيادات الأمنية رفيعة المستوى التى صاحبت وفد الرئيس ، وحارسه الخاص الذى شارك بمسدسه فى مواجهة المهاجمين وأطلق عليهم ٢٠ طلقة .

□□

فى الطائرة ، أجرى الرئيس اتصالين . . الأول مع رئيس الحكومة د. عاطف صدقى . . والثانى مع ابنه الأكبر علاء . . كان علاء قد طلب من والده أن يتصل به عند وصوله إلى أديس أبابا . . واتصل الرئيس به من الطائرة ، وكان رد علاء قبل أن يخبره الرئيس بما جرى : الحمد لله على سلامتك يابابا .

فضحك الرئيس قائلاً : أنا راجع .

ـ راجع إزاى ؟

ـ يابنى كانت هناك محاولة فاشلة للاعتداء علىّ . . الحمد لله .

ـ ألف سلامة يابابا .

ـ يا علاء . . اتصل بوالدتك تليفونيا قبل أن تذيع شبكات التليفزيون الخبر فتنزعج . . قل لها الحمد لله مفيش حاجة خالص .

وكانت السيدة سوزان مبارك تعالج فى إحدى مصحات تشيكوسلوفاكيا . . فقد كانت تشكو من آلام فى العمود الفقرى . . وعادت فورًا إلى القاهرة . وجرت من الطائرة اتصالات أخرى قام بها أحد رجال مكتب الرئيس . . والدكتور أسامة الباز . . وكان صفوت الشريف ممن تلقوا بعض هذه الاتصالات . . وكان من رأيه أن يكون استقبال الرئيس استقبالاً شعبيا . . وقد كان الرأى تأجيل هذه الخطوة . . والاكتفاء برموز المجتمع . . ليكونوا فى الاستقبال مع مؤتمر صحفى عالمى .

التقط القمر الصناعى الإسرائيلى الاتصال الأخير ، وهو ما جعل الإذاعة الإسرائيلية تسبق الإعلام المصرى فى إذاعة النبأ بدقائق . . وهذه ليست المرة الأولى التى تلتقط فيها إسرائيل اتصالات عربية هامة . . فقد سبق أن التقطت الاتصالات التى جرت بين الملوك والرؤساء العرب للإعداد لمؤتمر قمة القدس فى المغرب ، والتى تأجلت بعد تراجع الحكومة الإسرائيلية عن قرارات ضم الأراضى العربية فى القدس إليها .

وتلتقط إسرائيل مثل هذه الاتصالات عن طريق قاعدة « كانيو » للاتصالات ، وهى ثانى أكبر قاعدة اتصالات فى العالم ، وتقع على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم على جبل فى شمالى العاصمة الأريترية « أسمرة » وبالقرب من الحدود السودانية . وتضم القاعدة أحدث تقنيات أجهزة التنصت على كافة أنواع الاتصالات السلكية واللاسلكية وأجهزة الإرشاد البحرى ، وتستطيع تلك القاعدة التقاط إشارات ورسائل تتم داخل الحدود المصرية ، وفى محيط دائرى يصل إلى المحيط الهندى شرقًا (الأهالى ـ الأربعاء ٢٦/ ٧/ ٩٥) .

لم يكن التقاط اتصالات الطائرة هو المصدر الوحيد لمعلومات إسرائيل عن الحادث ، حيث كان أحد العاملين بالسفارة الإسرائيلية (يرجح أنه واحد من رجال الموساد هناك) قد شاهد الحادث عن قرب . . وبمجرد انتهاء وقائع هذا الحادث ، انطلق إلى غرفة

التقارير بالسفارة وأرسل بالترتيب تقريرًا إلى الخارجية الإسرائيلية ثم للموساد وأخيرًا لمكتب رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين الذى أجرى مباشرة مكالمتين ، الأولى مع الرئيس مبارك ، والثانية مع أحد القيادات اليمينية المتطرفة فى الموساد ، وسأله : هل لنا أية علاقة من قريب أو بعيد بهذه العملية ؟ وهل كنا على علم بما سيحدث ؟ ولم تعرف الإجابة حتى الآن ! .

□□

فى مبنى التليفزيون ، تلقى محمود شكرى مستشار قطاع الأخبار النبأ بعد ربع ساعة من انتهاء برنامج « صباح الخير يامصر » . . كان مصدر النبأ مكتب وزير الإعلام الذى غادر منزله متوجهًا إلى المطار لاستقبال الرئيس . . لكن . . لم يكن فى المبنى مذيع للأخبار يتولى قراءة النبأ . . فعهد به إلى أمانى زكى التى كانت تقدم برنامج « صباح الخير يامصر » . . فكان أن أزالت الماكياج ، وراحت تقرأ النبأ فى اضطراب ظاهر . . ثم جاء خيرى حسن وأمانى أبو خزيم . . وهذا ما جعل أمين بسيونى رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون يوجه اللوم لقطاع الأخبار لعدم وجود مذيع للأخبار جاهز لحالات الطوارئ ! !

كذلك كان من الصعب تدبير سيارة للبث المباشر تنقل وقائع وصول الرئيس إلى القاهرة . . وقيل إنها تحتاج لست ساعات . . وهو ما جعل البث الإذاعى هو الفرصة الوحيدة المتاحة . . وسبب ذلك مزيدًا من القلق لدى المصريين الذين التفوا حول أجهزة التليفزيون يحاولون استنشاق الاطمئنان .

□□

كانت طائرة الرئيس قد غادرت مطار أديس أبابا فى الساعة التاسعة والثلث صباحًا بتوقيت مصر وأثيوبيا معا . . فى هذه اللحظة كان المشهد فى مكان الحادث مؤلمًا . . جثث القتلى من الجناة والحرس الأثيوبى ملقاة فى وسط الطريق ، وعدد من السيارات فى صدام جماعى ، وبرك من الدماء تختلط بالخضرة وأسفلت الطريق الأسود . .

كان سيناريو العملية يقوم على وجود ٣ أكمنة ، و ٣ نقاط للتنفيذ . . كانت الأكمنة الثلاثة هى :

١ ـ كمين متحرك ، وهو السيارة « تويوتا » لاندكروز التى أوقفت الموكب ، وفصلت

بين سيارة الشرطة الأثيوبية ، وسيارة الرئيس وباقى سيارات الركب . . وقد نزل منها ٣ أفراد يطلقون الرصاص من بنادقهم الآلية « كلاشينكوف » عيار ٧,٩٢ ×٠,٧ × ٣٩ ، وهى روسية الصنع . . وكان هؤلاء يطلقون النار على سيارة الرئيس ، وقد استداروا معها عندما أخذت الطريق العكسى متجهة إلى المطار ، مما جعل ظهورهم مكشوفة للحرس المصرى الذى أطلق عليهم النار ، وقتل اثنين منهم وجرح الثالث . .

وفيما بعد ، رأت بعض المصادر الأمنية الأجنبية أنه كان يجب على الحرس المصرى التقاط جثث الإرهابيين أو على الأقل جثة من بينهم والعودة بها إلى القاهرة حيث تكشف تقارير الطب الشرعى والبحث الجنائى ببساطة عن هوية صاحبها ، ومن ثم هوية التنظيم الذى ينتمى إليه . . لكن الحرس المصرى كان مهتما بحياة الرئيس بالدرجة الأولى ، وترك مهمة كشف الجناة لفريق مصرى قانونى وأمنى آخر جاء فى يوم الحادث إلى أثيوبيا .

٢ ـ كمين ثابت على الطريق فى نفس النقطة ، وهو عبارة عن فيللا صغيرة من دور واحد تحمل رقم ٢١٤٣ ، وتملكها سيدة أثيوبية تدعى فنتاى قبرتنس ، وقد أجرتها إلى شخص يدعى « سراج محمد » ثبت فيما بعد أنه الشخص الذى جرح . . وقد اختفى من مكان الحادث بعد إصابته ، مما جعل اختفاءه لغزا وسرا حير العالم ، فقد قيل إنه قتل ، ولكن اللغز لم ينكشف إلا بعد اعتقاله .

وقد استؤجرت الفيللا لمدة ٦ شهور بمبلغ ٢٧ ألف « بر » أثيوبى ، أى ما يعادل ٣٥٠٠ دولار . . وفوق سطح هذه الفيللا كان اثنان من الجناة يطلقون الرصاص على سيارة الرئيس .

٣ ـ كمين متحرك عبارة عن سيارة مفخخة كانت تقف على بعد عدة أمتار بالقرب من بيت يستعمله وزير الدفاع الأثيوبى كمخزن للأثاث . وقد شاهد رجلان من الشرطة الأثيوبية الإرهابيين الذين يقفون بالقرب منه . . لكن الإرهابيين أطلقوا عليهما الرصاص فقتلا فى الحال ، وكان ذلك قبل ساعة الصفر . . أى قبل إطلاق الرصاص على سيارة الرئيس .

وبجانب هذه السيارة المفخخة ، كان هناك اثنان يحملان جهازين لإطلاق

قـذائف آر. بى. جى . وكان فى حوزتهما ٤ قذائف قادرة على اختراق الدروع الحـديدية وصهـرها، فانفجـار هذه القذائف يسبب درجة حرارة تزيد على ٣٠٠٠ درجة مئوية .

وبعيدًا عن هذه الأكمنة ، كانت هناك فيلتان استأجرهما مدبرو العملية امتلأت حجراتهما بالأسلحة والمفرقعات ، وعُثر فيهما على أجهزة اتصالات وتنصت ، اتضح أن هذه الأجهزة نجحت فى رصد وصول طائرة الرئيس ، كما أن بعضها كان فى الشاليه المخصص للرئيس فى « قصر الرؤساء » ، وهذا ما جعله يقرر النزول فى السفارة المصرية .

وكان مخططًا أن يبدأ المهاجمون بإطلاق النار على سيارة الرئيس عند نقطة الكمين الأول ، فإذا فشلوا وانطلقت السيارة إلى الأمام تعامل معها من فى الكمين الثانى بإطلاق قذائف آر. بى. جى عليها . . وإذا فشلت المحاولة تتدخل السيارة المفخخة . . وهذا يعنى أن الخطة كانت تتسم بالاحتراف والخطورة . . لكن كانت تفترض أن ركب الرئيس سيواصل تقدمه . . ولن تقفز سيارته على الجزيرة الوسطى وتعود إلى المطار . . ومن ثم كانت عبارة الرئيس للسائق : « لف وارجع » هى مفتاح النجاة . . فعلاً .

وهناك سيناريو آخر تفترض بعض المصادر أن الإرهابيين كانوا يفكرون فى تنفيذه ، وهو اختطاف الرئيس عند نقطة الكمين الأول ، ليصبح رهينة ، يمكن المساومة عليها . . للإفراج عن المتطرفين المعتقلين فى مصر . . ولفرض الكثير من الأمور التى يريدونها . . وليس هناك حتى الآن ما يؤكد هذا السيناريو ، كما أنه لا يوجد ما ينفيه تمامًا .

وقد كنت أول من نشر هذا الاحتمال فى « روز اليوسف » فى عدد ٢ يوليو ١٩٩٥ ، لكن جريدة «العربى » التى صدرت بعد روز اليوسف بأكثر من ٢٤ ساعة قالت : إن تقريرًا تم رفعه للرئيس مبارك فجر مفاجأة جديدة هى : إن المقصود من عملية أديس أبابا لم يكن اغتيال الرئيس ، بل اختطافه مع عدد من المسئولين المرافقين والتوجه إلى مطار أديس أبابا للسفر بالمختطفين إلى مكان غير معلوم (السودان على الأغلب) .

ويضيف التقرير : إن الإرهابيين كانوا يعتزمون المساومة على حياة الرئيس وربط

عودته لمصر بالإفراج الفورى عن المسجونين والمعتقلين كافة وإسقاط الأحكام القضائية الصادرة بحق قيادات الجهاد والجماعة الإسلامية وعلى رأسهم عمر عبد الرحمن وعبود الزمر ونبيل المغربى وترحيلهم إلى جهة يحددها منفذو حادث أديس أبابا .

□□

كان السيناريو « رهيبا » فى كل الاحتمالات . . لكن الرئيس مبارك الذى تعامل مع الموقف بهدوء وثبات ، قال : إنه تعرض فى حياته إلى كثير من الأهوال .

ولا جدال فى أن العبارة تتسم بالدقة . . فقد عاش حادث المنصة ، وما جرى فيه . . كما أن هناك محاولات عديدة جرى التخطيط لها استهدفته . فاغتيال قمة السلطة فى مصر هو هدف التنظيمات المتطرفة ، منذ أسس محمد عبد السلام فرج تنظيم الجهاد فى نهاية السبعينيات ، وهو التنظيم الذى اغتال الرئيس السادات . . الذى سألت صحيفة معاريف الإسرائيلية زوجته « جيهان » فى الأسبوع الماضى عن رأيها فيما جرى ، فقالت : لقد جفت الدموع منذ زمن . . وسألت : هل تعرف إسرائيل مرتكبى حادث أديس أبابا ؟ . . ولم تنس أن تعبر عن شوقها للرئيس الإسرائيلى فايتسمان وزوجته .

وكانت سلطات الأمن المصرية قد اكتشفت أكثر من محاولة ـ لم تعلن عنها ـ استهدفت حياة الرئيس . . بعضها كان فى مصر ، والبعض الآخر كان فى الخارج . . وأبرز محاولات الداخل كان مخططا تنفيذها فى سيدى برانى . . مرسى مطروح . . أما أبرز المحاولات فى الخارج ، فكانت فى سبتمبر ١٩٩٣ فى الولايات المتحدة ، حيث كان مقررًا أن يقوم الرئيس بزيارة لها يلقى خلالها خطابًا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة . . واكتشفت سلطات الأمن محاولة أخرى أثناء زيارة كان سيقوم بها الرئيس إلى بولندا وجرى العدول عنها . . . وكذلك خلال زيارة كان سيقوم بها إلى الهند . . وقد كُشفت هذه المحاولات قبل وقوعها .

ولا جدال فى أن رحلة أثيوبيا كانت تتسم بالخطورة لأكثر من سبب :

١ ـ الحدود المفتوحة بين السودان وأثيوبيا .

٢ ـ وجود معسكر تدريب للمتطرفين (من جنسيات مختلفة منهم مصريون) على بعد ٢٠ كيلومترا فقط من الحدود الأثيوبية مع السودان .

٣ ـ تواجد قيادات وعناصر جهاز الأمن والمخابرات السودانية فى أديس أبابا خلال الأيام العشرة التى سبقت عقد القمة الإفريقية ، منهم اللواء الفاتح عروة المستشار الأمنى للرئيس السودانى عمر البشير ، ومحمد أحمد الدابى رئيس المخابرات العسكرية السودانية .

٤ ـ عداء حسن الترابى لمصر وإدراكه أن أى اهتزاز للنظام فى مصر سيحقق مكسبا نفسيا ـ إن لم يكن سياسيا ـ للجماعات المتطرفة التى تعرضت لهزائم أمنية متلاحقة فى مصر .

٥ ـ أن السلطات الأثيوبية قبضت على شخص سودانى كان يقوم برسم منطقة الحادث قبل ساعات من وقوعه .

٦ ـ وجود أسامة بن لادن المليونير السعودى الذى يعد من أكبر ممولى الإرهاب بعد انتهاء الحرب فى أفغانستان . . وقد أشارت بعض التقديرات المؤكدة إلى أنه هو الذى قام بتمويل عملية أديس أبابا .

٧ ـ أن أثيوبيا دولة تعانى من عدم الاستقرار ، وقد أكدت التحقيقات التى تجريها السلطات الأثيوبية بعد الحادث على أن الجناة دخلوا أثيوبيا قبل أربعة أشهر على أنهم خبراء فى منظمة الأغذية والزراعة ، وتجولوا فى معظم الأقاليم الأثيوبية ، وتعرفوا على أوكار بيع السلاح فى مناطق الصراع القبلى . . وقد ترددوا أكثر من مرة على أثيوبيا حتى قرروا استئجار الفيللا الواقعة على طريق المطار التى نفذوا منها الهجوم .

□□

كان الحادث خطيرًا بكافة المقاييس . . فهو يثبت أن الإرهاب شبكات معقدة جذورها فى الداخل وفروعها فى الخارج . . ويثبت أن من الممكن استخدامه فى تصفية الحسابات السياسية . . فهناك إشارات وتلميحات تشير إلى تورط الولايات المتحدة . .

فهى على الأقل لم تحذر الرئيس مبارك بما يمكن أن يحدث . . والمفروض أنها تعرف كل ما يدور فى أثيوبيا التى هى من مناطق نفوذها الأمنى .

لكن . . بدلاً من أن نتنبه للحادث ونقيم آثاره وأسبابه حولناه إلى مهرجان ومولد . . ولا مانع من الفرح . . ولكن بشرط أن نتوقف ونفحص ونستوعب . . . ثم نتغير .

وهذا بالضبط ما دفعنى للذهاب إلى محمد حسنين هيكل لأفتح حوارًا معه ، وقد كانت مقدمة الحوار طويلة ، إلى حد كبير(*) .

□□

« كل » النـاس فى مصر يستطيعون ملامسة « كل » الحقيقـة فى معايشتهم للحياة «كل يوم » . . لكن . . بالرغم من ذلك هناك إلحاح زائد على « كل » حد لتلوين الصورة وتزويقها .

فى يوم الأربعاء ١٨ يناير ١٩٩٥ ، وأمام جمهور من رواد معرض الكتاب ـ نافس فى العدد والحماس جمهور كرة القدم ـ راح محمد حسنين هيكل يزيل بخبرة فائقة المساحيق والأصباغ عن صورة الحقيقة فى مصر . . فكشف البثور والندبات . . كشف الشحوب والاصفرار . . وأزال « كل » ماكان مغطى ومستورًا بماكياج الإعلام « الملون » بنظام بال . . سيكام .

□ كشف : أن مصر بمعايير النمو الاقتصادى تتراجع إلى الوراء ولا تتقدم إلى الأمام . . فقد وصلت نسبة النمو فى سنة ١٩٩٣ إلى ١٪ بالناقص ، وليس بالزائد . . أى أن مصر بدأت « تأكل » من لحمها الحى واستهلكت من رأسمالها ، ولم تضف شيئًا إليه على الإطلاق . . وكانت هذه المفاجأة . . **الصدمة الأولى للحقيقة**

□ وكشف : أن متوسط دخل الفرد فى مصر انخفض ٦٠ دولارًا فى السنة . .

(*) نشر الحوار فى روز اليوسف على ٣ أسابيع (من ١٧/٧ إلى ٣١/٧/ ١٩٩٥ ، وتوالت ردود الفعل عليه فى اليوم التالى ، فقد طيرته وكالات الأنباء ، وهاجمته الأقلام الرسمية فى مصر ، ورد عليه شيمون بيريز وزير خارجية إسرائيل ، واستخدمت بعض الصحف الأوروبية فقرات منه فى مقالاتها .

«وتـزامن مع ذلك إلغـاء الدعـم الاجتمـاعى الذى كان يـوفر حدا أدنى لعامة الناس فى غذائهم ، وفى كسـائهم ، وفى خـدمات التعليـم والصحـة ، وفى توفيـر فـرص العمل » . . وتزامن مع ذلك أيضًا اندلاع نيران الغلاء . . « غير زيادة الضرائب والرسوم » ، وقد أصبحت عمليـة جباية قـاسية . . وكانت هذه المتاعب المعيشية المؤلمة . . **الصدمة الثانية للحقيقة .**

□ وكشف : أن فى مصر مليونا وثمانمائة ألف عاطل من خريجى الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة . . « وهى بطالة مدركة ، واعية ، قابلة لأن تتحول إلى شحنة غضب عارم يشعر ـ من تصل إليه ـ أن مجتمعه يسلبه حقا كان يحسبه فى انتظاره » . . **وهذه هى الصدمة الثالثة للحقيقة .**

□ وكشف : أن التناقض الحاد بين الفقر والغنى ، سبب شعورًا بالاستفزاز يصعب تجاهله ، خصوصا وقد بدأ تركيز الغنى غير مبرر وأيضًا غير مشروع . . ثم إن حصار الفقر بدا هو الآخر غير مبرر وغير مشروع أيضًا . وبين الغنى والفقر أصبحت الطبقة الوسطى ـ وهى مستودع الحيوية الاجتماعية القادر على دفع موجات التقدم ـ مضغوطة ومحاصرة . . وهو ما جعلها تتوقف عن الحركة وتعجز عن النهوض . . **وهذه هى الصدمة الرابعة للحقيقة .**

* إن هذه الصدمات الاجتماعية والاقتصادية المتلاحقة أدخلت مصر فى حلقة مفرغة ودامية من العنف والعنف المضاد . . من الإرهاب إلى الإرهاب المضاد . . ومن ثم ، فنحن أمام ظاهرة اجتماعية سياسية لها زوايا إنسانية وفكرية تستوجب التدقيق بالبصر والبصيرة معًا .

واعتبر محمد حسنين هيكل عام ١٩٩٥ عام الخروج من الأزمة بصورة تتسم بالتخطيط والنظام . . « بدلاً من أن نترك الأزمة تحل نفسها بغير تخطيط أو تنظيم » . . ثم اقترح عدة تصورات منها :

* أن يقوم الرئيس حسنى مبارك بإعادة تنظيم الدولة ، وفى مقدمتها رئاسة الجمهورية . . « حتى يستطيع مكتبه ومعاونوه المختارون أن يؤدوا مهامًا حيوية فى المرحلة القادمة . إن رئاسة الجمهورية فى بلد مثل مصر هى مركز الأعصاب الحساسة

للدولة ، وبالتالى فهى شأن الجميع . ومن حق أى مواطن أن يدقق النظر ليكتشف أنه ليس فى الرئاسة إلا واحد أو اثنان من المستشارين ، ومن المؤكد أن ذلك لا يكفى إذا كان للرئاسة أن تتحمل تبعات ما تلتزم به وبخاصة فى مرحلة قادمة .

* إن هناك حاجة ماسة إلى عقد اجتماعى جديد فيه نص صريح على حقوق الإنسان بالمفهوم الشامل الذى توصلت إليه الأمم المتحدة . . التعليم ، والتعبير ، والصحة ، والعمل ، والديمقراطية ، والثقافة ، وحق السعادة أيضًا .

* إن هناك حاجة ماسة إلى إصلاح سياسى ودستورى ينظم العقد الاجتماعى الجديد . . بحيث يكون محترما وملزما . . وفى التعديلات الدستورية المقترحة ، لابد من نص ما عن نائب الرئيس . . « فلا يعقل والضرورات ملحة فى أمر حيوى على هذا المستوى أن يستمر السكوت عنه بأى تعلة » .

* إن هناك حاجة لتخفيف درجة الحرارة العامة فى مصر . . « ولابد من العمل بسرعة على وقف حالة من الحمى تعتريها الآن » . . لابد من وقف فورى لعملية سفك الدماء . . « إن القانون ما زال قادرًا على العمل ، وليس من حق القانون أن يلجأ إلى القتل قبل التحقيق وقبل المحاكمة وإلا أضاع القانون معناه . . كما أن حركة المشانق يجب أن تهدأ . . فالحياة أقدس من إهدارها بغير أدلة كافية » .

كان هيكل يعرض أفكاره دون إحساس ظاهر باليأس . . فقد كنا فى الأيام الأولى من عام جديد . . وأى جديد يحمل معه التفاؤل . . لكن هذا التفاؤل سرعان ما راح يخفت يوما بعد يوم . . ويترك النور ليدخل فى الظلام درجة بعد أخرى حتى أصبح من المستحيل التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود ، بعد صدور قانون الصحافة ، وضرب حرية التعبير . . وهو ما جعل هيكل يقول : « إن هذا القانون فى ظنى يعكس أزمة سلطة شاخت فى مواقعها ، وهى تشعر أن الحوادث تتجاوزها » . . وكانت هذه العبارة هى أشد عبارة انتقاد وجهت للسلطة الحاكمة فى مصر .

قال هيكل هذه العبارة القاسية فى رسالته للجمعية العمومية الطارئة لنقابة الصحفيين التى انعقدت فى يوم السبت ١٠ يونيو ١٩٩٥ لرفض قانون الصحافة (القانون رقم ٩٣ لسنة ١٩٩٥) وبحث الوسائل المناسبة للتخلص منه . . لكن . .

هيكل قال فى برقية أرسلها للرئيس مبارك يوم نجاته من محاولة الاغتيال فى أديس أبابا فى يوم الإثنين ٢٦ يونيو (أى بعد ١٦ يومًا فقط من رسالته للصحفيين) . . إنه يعتبر دور الرئيس مبارك فى هذا البلد « لا بديل له ولا غنى عنه . . ذلك أن أحوال التاريخ تعطى فى مراحلها الدقيقة والحساسة لبعض الأدوار أهمية تتجاوز طاقة الأفراد » . . واستطرد هيكل : « وظنى أن مصر الآن فى حال مماثل ، ودوركم فيها أكثر من ضرورى وأكثر من حيوى لسلامة الأمة وحماية مستقبلها » .

ثم . . أضاف : « إن كل مواطن مصرى وكل قومى عربى يرفض فكرًا ومبدأ وفعلاً أى شر يمسكم ، فهو عبث بأقدار الأمة وإهدار لحقها فى مستقبل نرجوه أمانا وطمأنينة وعزا لا يتحقق شىء منها بالرصاص ولكن باستنارة العقل والقلب والضمير » .

ثم . . راحت المشاعر تتدفق . . وراحت الأحداث تتوالى . . الحب الذى سارع المصريون بتقديمه للرئيس ، تحول إلى زفة . . ومولد . . والشعبية التى ارتفعت لنظام الحكم لم تستغل فى التغيير والتحديث ، وإنما استغلت فى ذبح « العجول » على شاشة التليفزيون . . ونقلت الكاميرات صور الذبائح الغارقة بالدم . . ولم تفكر فى التوقف لمناقشة ما الذى جرى . . وبدلاً من البحث عن حلول لمشاكل كانت بلا حلول ـ قبل محاولة الاغتيال ـ وجدنا أنفسنا مندفعين لمزيد من المشاكل فى اتجاه السودان .

إن ذلك كله دفعنى للحوار مع هيكل . . فنحن دائمًا فى حاجة للأصوات العاقلة ، الشجاعة ، مهما كان حجم الصخب والبريق . . فسافرت إليه . . إلى الساحل الشمالى (حوالى ٦٠٠ كيلو متر قطعتها فى الذهاب والعودة فى اليوم نفسه) . وكان هناك يراجع مسودة كتابه الجديد عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، الذى سيصدر فى أكتوبر القادم . . وقد وجد من جانبه أن موضوع الحوار لا يحتمل التأجيل . . ومن ثم ترك بروفات الكتاب جانبا بعض الوقت . . وقال :

ـ قبل أى شىء . . الدولة فى اعتقادى فى حاجة إلى وقفة مع النفس . . أحيانًا الظروف تمنحك فرصة دون أن تريد ، وتكسبك آلية حركة ذاتية ، وهو ما حدث للسلطة فى مصر الآن بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا . . علينا أن نقف الآن ونقول : إيه الحكاية ؟

الرئيس مبارك عندما جاء إلى الحكم ـ فى ظروف حادث المنصة التى نعرفها ـ قام بوقفة لتهدئة الأعصاب ، لكنها فى اعتقادى لم تكن وقفة لإعادة النظر والتفكير .

أسوأ ما فى مصر أنها لا تعترف بالتغيير ـ أو التجديد ـ الكامل . . عندنا تراث فرعونى . . يوضع فوقه تراث مملوكى . . ثم تراث شركسى جاء به محمد على . . وضع عليه جمال عبد الناصر . . ثم أنور السادات . . . هكذا بلا فرز .

ويبدو أن هذا « طبع مصرى » . . فنحن فى بيوتنا نحتفظ بأشياء لا لزوم لها . . مع أن هذه الأشياء تلقى علينا أحمالاً وأعباء لا لزوم لها .

□ نسميها كراكيب !

ـ لابد من اعتبارين أساسيين . . الأول : أن نفرز باستمرار تجاربنا ونستبعد ، منها ما لم يعد ملائماً . . والثانى : أن تكون قراءتنا لكل ما يستجد وما يضاف قراءة سليمة . . ونحن لا نفرز الماضى . . ولا نقرأ الحاضر قراءة سليمة . .

أنا واحد من الناس فزعت واستفززت بعد حادث الاعتداء فى أديس أبابا . . وكان ذلك قلقًا على المستقبل . . وليس مبايعة أو موافقة على ما كان . . لكننا لم نتوقف لقراءة الحادث ورحنا نخلط الأوراق والمشاعر . .

□ هناك من يرى أن حادث أديس أبابا شبيه بحادث المنشية . . البعض تفاءل وأحس بأن القوة والشعبية التى اكتسبها النظام ستدفعه للتغيير كما فعل جمال عبد الناصر بعد حادث المنشية . . والبعض تشاءم وخشى بطش الأمن كما حدث بعد المنشية أيضًا . . فهل توافق على المقارنة بين الحادثين ؟

ـ حادث المنشية وقع لجمال عبد الناصر فى بداية حكمه ، وبالتالى كان مستعدا للتغيير . . وقع الحادث فى السنة الثالثة لحكمه ،وكان أمامه اختبارات وخيارات لم تتحقق . . وعد الاستقلال الوطنى . . وعد التنمية . . عدم الانحياز . . السد العالى . . كان أمام جمال عبد الناصر فسحة من الوقت وخيارات لم تنفذ . . ونفذها . . ومن ثم المقارنة غير سليمة . . والقراءة غير سليمة .

□ والمنصـــة ؟

ـ أنور السادات فى المنصة كان فى موقف مختلف أيضًا . . أنور السادات ارتكب

أخطاء بشكل أو بآخر . . انتهت به إلى حالة غضب . . لكن . . كان الموقف بعده واضحًا . . فيه نائب رئيس . . ومؤسسات باقية من عصر مضى استطاعت أن ترتب الدولة . . لكن . . ما حدث هذه المرة أننا لا نعرف ماذا كنا سنكون لو لا قدر الله وحدث المكروه فى أديس أبابا . . أنا فُزعت . . ليس لأنى راض عما كان . . أنا لست راضيًا . . لكن خوفا مما يمكن أن يكون . . خوفى من الآثار المترتبة على عدم وجود طريق . . أنا أفرق بين الإنسان والحاكم . . لا أتمنى الشر ولا السوء ، ولكن مقادير ربنا ممكن تحصل .

كثير من الأمور معلقة بمبارك . . مبارك كان مفروض فى اعتقادى يعمل «بريدج» . . جسر تعبر عليه الأمة من مرحلة لمرحلة أخرى . . من عصر إلى عصر آخر . . هذا الجسر معطل . . معطل . . ليه ؟

□ ليه ؟

ـ بسبب الأخطاء القديمة التى لم نفرزها وبسبب عدم القراءة السليمة للواقع . . وهذان السببان خلقا مصالح لها قوى ضاغطة . . تصر على ما هو قائم وتقاوم التغيير . . أكثر ما أفزعنى هو خوفى على مستقبل البلد . . لأن معنى أن يحصل لمبارك حاجة النهاردة أن أجد نفسى أمام أوضاع أنا خايف منها .

أنا أعتقد أن أهم حاجة فى مصر هى الإبقاء على الدولة مهما كان الثمن . . نحن نرى حولنا أوطانا انفرطت . . الوطن اللبنانى مثلا . . فى وقت من الأوقات كنت تسمع من اللبنانيين أن نفسهم فى دولة يعيشون فيها مهما كان شكلها . . الدولة اليوغسلافية انفرطت . . الجزائر بتتفرط . . والسودان أيضًا . .

أنا أريد الدولة وهذا هو الأهم . . وإذا راح رمز الدولة فى هذه الظروف دون طريقة لنقل السلطة ، سنكون أمام مجهولات قد تؤدى إلى انفراط الدولة . . وهو أكثر من غياب رئيس . . كل بشر يمكن أن يعوض . . لكن . . فى الظروف الدولية الراهنة ممكن قوى بلاد تلاقى نفسها انفرطت فعلا .

القلق الذى أصاب الناس مثلما أصابنى هو خوف على المستقبل وليس مبايعة لما كان . . لكن . . فوجئنا بمن يستغل مشاعر الناس ويطالب بمبايعة لفترة رئاسة رابعة . . أنا لم أر سوء قراءة لواقع أكثر من هذا ، لأن هناك عدم رضاء عما هو قائم . .

بمعنى . . البلد لم يتغير بعد محاولة الاغتيال . . الأزمات لم تنفجر . . المشاكل لم تحل . . الحقائق التى كانت قائمة قبل المحاولة مازالت قائمة بعدها . . كل ما حصل أننا أفقنا فى لحظة قلق عميق ، وكان من الممكن توظيف هذا القلق إيجابيا . . لكن لم يحدث .

□ هل يمكن أن نتخيل شكل السيناريو لو قدر الله ونجحت محاولة أديس أبابا ؟

ـ سيدخل الجيش ويأخذ السلطة . . فليس هناك نائب رئيس . . والحكومة الموجودة لا تتمتع بمصداقية . . الوضع المتوقع أن يمد الجيش ذراعه ويأخذ السلطة . . والجيش منطقة محرمة لا نتكلم فيها ولا نعرف ما فيها ؛ ومن ثم صورة الحكم القادمة فى هذه الحالة . . مجهولة . . وهذه هى الكارثة .

الرئيس مبارك موجود ، وأنا عندى ملاحظات عليه وملاحظات لصالحه . . فى كل الأحوال يبقى أن هدفى هو بقاء الدولة ، وتوجيه الدولة التوجيه السليم .

ساعة ما أطلقت الرصاصات عليه ، كانت فكرة الدولة ومستقبل الدولة فى خطر . . ممكن نقول هو مسئول لأنه لم يعين نائبًا . . وممكن نقول مفيش مؤسسات فى البلد . . بصرف النظر . . أنا لا أبحث فى لحظة الخطر عن المسئول . . أنا أبحث عن السلامة والأمن . . لا أقصد سلامتى . . أقصد سلامة البلد .

□ إننا لم نستوعب الحادث بهذا الفهم .

ـ أخطأنا فى الفهم والقراءة . . وحولنا ما جرى بعيدًا عن مجراه الطبيعى . . وفى النهاية نسينا أن اللحظات التى تتجمع فيها الأمة حول شخص أو شىء لحظات محدودة . . لكن بما أن المشاكل قائمة من قبل ومستمرة من بعد . . فإننا سنرى الصورة كما هى . . وستضيع اللحظة العاطفية التى خرجت من الأعماق . . اللحظة العاطفية كان من الممكن استغلالها لو كنا على وعى بها . . كان من الممكن أن نبنى عليها . . وتكون بداية جديدة . . لكننا أسأنا القراءة . . قراءتها . . فحدث رد فعل عكسى . . وهذا حادث الآن .

لقد عرفت الشعور العام المتعاطف . . لكنك صورت الأمر على غير حقيقته . . واندفعت ناحية المبالغة . . وبعصبية . . عندما عاد مبارك من أديس أبابا ، كان فى كامل لياقته السياسية والنفسية . . ثم تدخلت عناصر أخرى أخذت الموقف إلى أبعد

مما أردنا . . إلى منطقة فجة . . فلم نوظف اللحظة العاطفية توظيفًا مستنيرًا . . وإنما وظفناها لاستمرار الأوضاع كما هى . . وهنا الخطر الفظيع .

لحظة جمال عبد الناصر العاطفية استغلت بصورة مناسبة . . ولحظة أنور السادات لم تكن عاطفية لكن الانتقال حصل بسرعة لأن فيه « حد » . . النهاردة أنت وضعك على غير ما يرام . . ثم جاءت الفرصة لكن لا أحد استغلها . . ودفعنا فى اتجاه بعيد . . فأصبنا الناس بمزيد من النرفزة والإحباط . . ثم دخلنا فى إشكال مع السودان . . واستغلت إسرائيل الفرصة ، وراح إسحق رابين يتحدث عن تجمع يشترك فيه الحكام العرب لمواجهة التيار الإسلامى . . أى مصداقية يمكن أن نحظى بها بعد ذلك ؟

☐ تحدثت فى البرقية التى أرسلتها للرئيس عن بر السلامة ولم تقترب من ظاهرة الإرهاب . . .

ـ استنى . . أنا غير معتقد فى موضوع الإرهاب . . المجتمع فيه عنف ظاهر . . يثير القلق . . لكن تسميته بالإرهاب مخل . . إن ضحايا حرب السويس أقل من الذين قتلوا فى السنوات القليلة الماضية . .

عمومًا هذه قصة أخرى يمكن أن نعود إليها فيما بعد حتى لا نقطع اتساق الأفكار . المطلوب الآن مشروع حضارى . . دولة حضارية : . القتل بدون تمييز غير حضارى . . عدم فرز الماضى غير حضارى . . عدم قراءة المستقبل قراءة مستنيرة عمل غير حضارى . . الطريقة التى تصرفت الدولة بها بعد الحادث عمل غير حضارى . . القضية أننا فى حالة تخلف ونواجه عنفا متخلفا .

☐ التخلف هو عدم حسم أيديولوجية الدولة . . إنها تتردد بين الدولة المدنية والدولة الدينية . .

ـ أزمة المثقفين هى أنهم يقفزون خلف المراحل ، ومن ثم نخسر باستمرار . . الدين جزء من النسيج القومى . . هو الجلد العارى للإنسان هنا . . توضع عليه الهوية . . ثم التربية . . ثم التعليم . . وفوق ذلك تجربة الحياة . . عندما تهتز هذه التجربة ، ويتناقض التعليم مع ما أراه ، وتختل قواعد التربية والهوية . . لا أجد أمامى سوى الدين . . جلدى المباشر .

□ ما مظاهر الخلل ؟

ـ كثيرة . . أنا لا أعرف مصادر الثروة من أين ؟ . . ولا أعرف ما هى شرعية السلطة؟ . . مظاهر الخلل لا حصر لها . . انظر حولك . . لذلك أنا أتحدث عن مشروع حضارى غائب !

□ ما هو ؟

ـ مشروع استنارة . . تحديث . . تعبير متسع . . أحمد عرابى عبر عن مشروعه الحضارى بالاستقلال . . لطفى السيد عبر عن مشروعه الحضارى بكلمتين . . البرلمان والجامعة . . أى الديمقراطية والتعليم . . ثورة يوليو كان مشروعها الحضارى التنمية الاجتماعية التى يشارك فيها أكبر عدد من الناس . . . . قولوا لنا الآن من أنتم ؟ . . دولة رجال أعمال . . دولة حريات . . دولة عدالة اجتماعية . . قولوا لنا ما فى تفكيركم؟ . . لابد أن يكون مشروعنا الحضارى واضحًا كالشمس . . ولا يمكن أن يكون بعيدًا عن التحديث . . ولا بعيدًا عن القيم العقلية . . أن نخرج الفرد من حالة القدرية والاتكالية . . من حالة الإحساس بالقهر . . خذ دلالة حادث جلد الطبيب المصرى فى السعودية . . إيه الحكاية ؟ . . ما معناها؟ . . إنها تعبير عن أخلاق العبودية . . وهى أخلاق تجعل صاحبها صابرًا دون مبرر ، فإذا انفجر جاء انفجاره غير منظم . . هل تتذكر ثورة سبارتكوس . . كانت ثورة عبيد . . استمرت يوما واحدًا لأنهم تمردوا على القيود وطقوا من الغيظ . . فقط . . وانتهت الثورة . . استهلكت نفسها .

قعدنا صابرين على سوء معاملة المصريين فى الخارج . . مسئولين وغير مسئولين . لقد قبلنا ما لا يقبل . . وعندما تمردنا ، انفجرنا . وهذا شىء خطير جدا فى العقلية المصرية .

لقد رأيت أن رد فعل حادث الجلد تأخر كثيرًا ، وتعدى الحدود . . أين كنتم عندما حدث مثل هذا الأمر كثيرًا من قبل ؟ . . ونحن لدينا مصريون فى الخارج لا ندرى عنهم أى شىء . . فى العراق نصف مليون مصرى ليست لدينا فكرة عما يجرى لهم . . وفى لبنان وجدت مصريين يعملون هناك فى أى شىء . . لا أحد يرعاهم . . لا وزارة . . ولا سفارة . . كأنهم بلا دولة .

حتى وقت قريب ، كان الإنسان المصرى الموجود فى أى دولة رسول تعليم وثقافة وحضارة ، ومن ورائه دولة قوية . . لكن ذلك تغير الآن ، وأصبحنا فى أسوأ صورة ونتعرض لأسوأ معاملة . . لماذا ؟ . . حدث عندما جعلنا المال هو عنصر القيمة . . الناس راحت تلهث خلفه ، وبدأت تسمع من يقول وهو على عتبة السفر : إننى سأتحمل عيشة صعبة عدة سنوات لأعود ملكا .

□ **والحادث أنه يعود مقهوراً ليمارس متاعبه النفسية على أهل بلده .**

ـ إنها التشوهات التى أصابت المجتمع المصرى خلال ربع القرن الأخير . . ثم يقولون : الهزيمة ؟ . . هزيمة إيه ؟ . . لقد حاربت وإنهزمت وإنتصرت . . وغيرى ماذا فعل ؟ . . لم يفعل أى شىء . . ونحن الذين أعطينا الآخرين فى العالم العربى فرصة للتنديد بعوراتنا بعد أن كشفنا نحن هذه العورات دون داع . . إن كشف العورات ضرورة لتصحيح المسار ، ولكن بدون أن نبيعها للآخرين . . لقد ذبحنا أنفسنا أمامهم من أجل المال . . وفى النهاية ساد منطق أنا خايف منه على البلد . . منطق العبودية .

هذه ليست أخلاق مجتمع متحضر . . ولا مجتمع فيه قيم . . ثم تسألنى عن المشروع الحضارى . . المشروع الحضارى : الدفاع عن المواطن . . كيف يمكن للعالم فى الخارج أن يحترمك إذا لم تكن محترما ـ كمواطن ـ فى الداخل ؟ . . كيف ؟

زمان كنا نصف الشعب بأنه القائد والمعلم . . الآن نقول للناس علنا : حنأكلكوا منين ؟ . . أليس فى ذلك سحب لكرامة الناس ؟! . . والغريب أنك سحبت الكرامة وأنا غير مهزوم . . أخذتها وأنا منتصر . . وعملت معجزة .

□ **المثير للدهشة أن نتيجة الهزيمة فى ١٩٦٧ كانت التحدى ، ونتيجة الانتصار فى ١٩٧٣ السلبية والانكسار . . استبدلنا الخرافة بالعلم . . والتنمية بالسفر للخارج ، والزهو بالإحباط .**

ـ لأننا ببساطة غيرنا مجموعة القيم التى كانت تحكمنا . . ولأننا لا نتوقف للفرز ولا للقراءة .

□ **هل فات الوقت لنستغل العناصر الإيجابية التى تدفقت بعد حادث أديس أبابا؟**

ـ الوقت عمره ما يفوت . . الوقت باستمرار أداة للإرادة . . وهو عنصر محايد . .

صفحة بيضاء تكتب عليها ما تريد . . وإذا كانت صفحتك امتلأت نغبشة مزقها . . وأعد القراءة والكتابة . . وهذه هى قيمة العقل . . العقل لا يختزن فقط ، وإنما يراجع أيضًا . . العقل يتأكد ويستوثق بين مرحلة وأخرى ، ويرمى صفحة ويبدأ صفحة جديدة .

ذات مرة ، جاء توفيق الحكيم لى ومعه قصة وطلب رأيى فيها . وبعد أن قرأتها وبدت علىّ علامات عدم الانبساط ، أخذها توفيق الحكيم ومزقها . كنت سأجن . . توفيق الحكيم يمزق قصة من ١٢ صفحة . . يا أخى لا مانع من أن نمزق مالا يعجبنا . . لأن العقل يراجع . . بعد القراءة والفرز .

□ ما الذى تقترحه الآن ؟

ـ استغلال اللحظة العاطفية . . كنت أقول إن فيه « تدفق » من المشاعر تجاه الرئيس سنجعلها بداية جديدة . . لا أستغلها بعيدًا عن الناس لكن أحاول استغلالها للرد على أسباب القلق الموجودة عند الناس دون أن أكشف أنها رد فعل . . مع أنه ليس عيبا أن تكون رد فعل فى مثل هذه اللحظات .

إن هذه الحادثة كشفت أن مبارك لا تزال له جاذبية ومصداقية . . وقد قلت فى معرض الكتاب إنه ما زال فى رأيى هو القادر على الفعل ، لأن التغيير مستحيل إلا بعنف . . وفى البرقية التى أرسلتها له قلت إن أكثر الناس الذين يخالفونه هم أكثر الناس حرصا عليه ، لأنه هو بالنسبة لى المفتاح الطبيعى للتطور السلمى . . لا طريق آخر للتطور السلمى . . وهذا هو سر جزع الناس .

وكان لابد أن يكون الرد على الناس : أنا حسيت إلى أى مدى تعتمدون عَلَىَّ ، وواجبى الأول أن أكفيكم خطر الاعتماد على فرد . . وواجبى الأول أن أجعلكم تستمرون مهما فقدتم من أشخاص .

إن السلطات الآن مركزة فى يد الرئيس . . كل السلطات الموروثة والموجودة ، ولذلك كان لابد أن يقول للناس : إن واجبى ـ بعد القلق الذى شعرتم به ـ أن أقلل اعتمادكم على فرد . . تعالوا سنعمل كذا . . وكذا . .

لكن . . ذلك لم يحدث حتى الآن .

ونتوقف قليلاً لالتقاط الأنفاس . . وإخراج ما فى النفس من مشاعر لا تخلو من التوجس والمرارة . . إننا فى مناخ مثقل بالقلق . . والخوف من غد مجهول . . وفى هذا المناخ يفقد الكاتب الرقابة على أصابعه . ويفقد المفكر الرقابة على أفكاره . . وتقفز كلمة الحق فوق كل اعتبار . . فلابد أن تقال مهما كان الثمن .

إن الجرأة ـ فى زمن الإعلام الكاذب والحمل الكاذب ـ هى جبيرة النفس المكسورة . . ورقعة القلب الممزق . . ومهما كانت مرارة الجرأة . . فلابد أن نتجرعها قبل فوات الأوان .

ويملك محمد حسنين هيكل هذا الدواء . . يملك أقراص الجرأة . . وهو يقدمها وقد تحرر مما يقيد غيره من أصحاب الرأى والمشورة . . المنصب . . الجاه . . ومعاشرة السلطة .

لذلك . . لابد أن نسمعه . . فإذا لم نسمع محمد حسنين هيكل الآن . . فمن نسمع ؟

فى الحوار معه هذه المرة كان يكرر ـ بين فكرة وأخرى ـ عبارة أقرب للحكمة . . إننا لا نتوقف لفرز الماضى . . ولا نسعى لقراءة الحاضر . . ومن ثم فالمستقبل مجهول . . إننا لا نعرف فى أى طريق نندفع . . لكننا نعرف أننا ندفع إليه . . بسرعة مذهلة .

واندفع هيكل للحوار بسرعة مذهلة . . لكنه كان يعرف فى أى طريق يندفع . . قال :

ـ مرة أخرى أعيد . . إن الدولة فى حاجة إلى وقفة مع النفس . . واعتقادى الجازم أننا لابد أن نفرز باستمرار تجاربنا ونبعد منها ما لم يعد ملائمًا . . ولابد أيضًا من قراءة حقيقية لما نحن فيه .

□ ما نحن فيه وصل إلى الذروة الدرامية بمحاولة اغتيال الرئيس مبارك . . والفشل فى استغلال لحظة التفاف الأمة حوله فى إحداث التغيير المطلوب . . والاكتفاء بموالد الإعلام . . ودقات الطبول . . إن الذين أفسدوا ما حولنا هم الذين استفادوا من محاولة الاغتيال . . وكان أن وجدنا أنفسنا مندفعين فى طريق محاربة السودان . . كيف نقرأ ذلك؟ . . وكيف نفرز تجاربنا السابقة فيه ؟

ـ منذ سنة ١٩٧٥ حتى سنة ١٩٨١ ، أنا اعتقد أننا تورطنا فى عمليات كثيرة لا

علاقة لنا بها . . واختلفت مصالحنا عنها . . منها : تأمين القرن الإفريقى . . ومنها الحرب « المقدسة » فى أفغانستان . فى القرن الإفريقى . . ماذا فعلنا ؟ . . كان هناك نظام منجستو هيلاماريم فى أثيوبيا . . ونظام سياد برى الذى كان ينهار فى الصومال . . تصورنا أن الشيوعية ستدخل . . وهو ماتصورته الولايات المتحدة أيضًا . . لكن . . لأن الكونجرس «الأمريكى» كان يحجب الاعتمادات عن التدخل الأمريكى فى هذه المنطقة ، فإننا اقتنعنا ـ فى وقت من الأوقات ـ أنه بتمويل عربى ، نفطى ، يمكن الإنفاق على عمليات خفية Under Cover تحاول تغيير الأوضاع فى القرن الإفريقى ، وكان التمويل بنحو ٥٠٠ مليون دولار سنويا فى حساب فى سويسرا . وتم ذلك دون أن نسأل أنفسنا : إلى أى مدى سيجرنا موضوع القرن الإفريقى ؟ . . ما مدى تأثيره على سياسات البحر الأحمر ؟ . . فى الصومال ؟ . . وما مدى تأثير ما نفعله فى الصومال على السودان ؟

لقد كانت مصر تتمتع بسياسة هادئة فى هذه المنطقة باستمرار . . وعلى مدى العهود المختلفة . . منذ عهد محمد على « باشا » الذى ساهم فى كشف الصومال جغرافيا . . واستكمل ذلك إسماعيل « باشا » . . وبصرف النظر عن أهداف محمد على ، كانت هذه المنطقة ، منطقة حيوية بالنسبة لنا . . فهى قريبة من منابع النيل . . أو من الأنهار التى تحمل إلينا مياه النيل .

طوال الوقت ـ وبانتظام ـ كنا ندرك أن هذه المنطقة تمثل محور أمن رئيسيا بالنسبة لمصر . . محور أمن لا نستطيع أن نحمى مصالحنا الحيوية فيه بقوة السلاح . . ومن ثم . . فينبغى أن تكون لدينا سياسة نشطة جدا هناك . . لكن . . لا تتورط بأى حال من الأحوال . . ولا تدخل فى صراعات ولا خناقات محلية .

□ هل تقصد بمصالحنا . . المياه ؟

ـ نعم . . المياه مورد لا نستطيع الاستغناء عنه . . وفى الوقت نفسه هذا المورد خارج الحدود . . وبالتالى لابد أن يكون دفاعنا عنه هو دفاع بدون قتال . . أى بدبلوماسية واعية ، نشطة . . خصوصًا فى السودان .

فى عصر الملك فؤاد ، وفى عصر الملك فاروق ، كان لمصر فى السودان طرف يؤيدها . . ولو على استحياء هم الميرغنية . . وطرف يعارضها ولو على استحياء هم المهدية .

بعد الثورة حافظت مصر فى السودان على علاقتها بكل القوى . . لا تقطع مع أحد . . لا تعادى أحدًا . . أنت لست طرفًا فى عداء الصراعات الموجودة هناك ، وهى صراعات عرقية . . طائفية . . صراعات حدود . . أنت يهمك هذه المنطقة ويهمك أمنها . . وفيها مصالحك . . لكنها مصالح لا يصونها السلاح . . لأن هناك مسافات شاسعة لا تستطيع أن تقاتل فيها .

كنا نصون مصالحنا فى هذه المنطقة بالتواجد الحضارى . . لقد زرت السودان مرات عديدة . . وعاشرت الناس هناك . . واكتشفت بسهولة أن أم كلثوم كانت المطربة الأولى هناك . . وأن توزيع الصحف والمجلات المصرية فى الخرطوم كان ينافس توزيعها فى مصر . . وربما يزيد . . ومعظم التنظيمات والأحزاب السياسية المصرية كانت لها فروع فى السودان . . حتى التنظيمات السرية كانت لها خلايا هناك . . وفى الصومال ، زرت مدينة بربرة (وهى على الجانب المقابل لعدن على باب المندب) ورأيت فيها خط مياه تشرب منه ، كان محمد على هو الذى أمده على هيئة سحارات . . كذلك أتصور أن الحرب مستحيلة ـ ليس لهذه الأسباب فقط ـ وإنما لأن جنودنا تعودوا على حروب الصحراء . . لا على حروب الغابات والأحراش .

والذين يطالبون بأن نقاتل السودان ، ألا يعرفون أنك حتى تقترب من الخرطوم ستقطع حوالى ١٥٠٠ كيلو متر فى العراء على مجرى النيل . . وتصبح عرضة لحرب عصابات ليس لها حل . . ثم . . دم بينك وبين السودانيين . . مستحيل .

السودان جبهة كانت مصر حريصة دائمًا على تأمينها بهدوء وبدون توتر حتى فى أوقات حكم المهدية التى اتسمت بالاستفزاز . . وكما حدث إبان الأزمة التى فجرها عبد الله خليل فى سنة ١٩٥٨ . . الهدوء لا التوتر . . الدبلوماسية لا الحرب . . هذه هى القاعدة الوحيدة للتعامل مع السودان مهما كان من يحكمه .

وفى أثيوبيا كان نظام هيلاسلاسى قمة الرجعية ، ومع ذلك كان صديقًا لنظام جمال عبد الناصر الثورى . . ووافقت على أن يكون فيها مقر منظمة الوحدة الإفريقية . . عندك هنا سياسة معينة . . هادئة . . وعندك ضوابط لها .

لكن . . هذه السياسة انقلبت وتغيرت ، عندما قررت مصر التدخل فى القرن الإفريقى ومحاربة الشيوعية ونظام منجستو . . أنا لا أحارب نظامًا فى أثيوبيا شيوعيا أو

غير شيوعى حفاظًا على مصالحى الحيوية . . المياه . . أنا كل نظام هناك ينبغى أن يتقينى ويحرص على صداقتى وأنا علاقتى من بعيد ، حريص على مصالحى ، وطرف كبير لا يستطيع أحد أن يتحدى هذه المصالح .

فى السـودان نفس الشىء وأكثر ، لأن الروابط البشرية لها تأثيرها وحيويتها وأهميتها .

لقد تدخلنا فى القرن الإفريقى بألعاب غير مسئولة . . ثم دخلنا طرفًا فى السياسة الداخلية للسودان دون حق ودون مبرر . ساندت انقلاب البشير متصورًا أنه معك ، فإذا به عليك . . دخلنا فى الخرطوم فى ألعاب متوترة بسبب التورط أصلاً فى القرن الإفريقى .

□ ما هى مظاهر التورط فى القرن الإفريقى ؟

ـ تدخلت ببيع السلاح فى الصومال . . وساندت نميرى وأبقيته فى مصر . . وتدخلت فى تغيير النظام فى السودان . . والمعارضة السودانية موجودة عندك . . المعارضة السودانية تروح تعارض من أى مكان آخر . . أنا لى الوضع القائم فى السودان . . وكل وضع قائم فى السودان لابد أن يعمل حسابى ولست طرفًا فى خناقاته .

السودان يحصل فيه تحول كبير . . عنده مشكلة شمال وجنوب . . وعنده مشكلة شرق وغرب . . وفيه صراعات قبلية وعرقية مؤلمة . . وحتى الطوائف القديمة التى كنت أتعامل معها مثل الختمية والأنصار لم تعد مؤثرة كما كانت . . أنا فى ذلك كل ما يهمنى شىء واحد . . مصالحى الدائمة فى السودان . . والروابط المتصلة مع شعب السودان . . لا أدخل فى الخيارات الداخلية السودانية . . يمكن أن أساعد من الخارج بشرط أن تكون المساعدة لكل الشعب السودانى وليس لسياسة ما أو لطائفة ما . . لكن . . ما حدث أن مصر فى وقت ما دخلت ولعبت . . وأدى ذلك فى النهاية إلى أن محور الأمن الجنوبى تعرض لمشكلة كبرى . . نعانى منها الآن .

□ وأفغانستان ؟

ـ أفغانستان أنت لا علاقة لك بها . . آخر حدود الأمن بالنسبة لنا هو العراق . . أما إيران فأنت حر تصبح صديقًا لها أم عدوا . . ما وراء هذا هو خارج اختصاصك إلا فى إطار التضامن الإسلامى والعلاقات الودية . . لكن . . ما حدث هو أن مصر

تورطت فى أفغانستان وأصبحت أهم قواعد التجنيد والتمويل . . الذى ساهمت فيه المخابرات المركزية الأمريكية بـ ٥٠٠ مليون دولار وساهمت كذلك فى تدريب صفوة من شبابنا كانت ترسلهم إلى أفغانستان . . وقد وصفتهم فى يوم من الأيام بالمجاهدين ، وكانوا عندك فى مرتبةالأبطال .

دخلت فى أفغانستان لمحاربة الدولة السوفيتية . . الدولة السوفيتية كانت ستقع لوحدها . . لكن ببساطة هذه قضية خارج حدودك . . وهذه هى المسألة الثانية التى انعكست على الأمن القومى المصرى فيما بعد وجعلتنا نعانى مما نحن فيه الآن .

□ ثـم . . . ؟

ـ ثم كبلت نفسك من جانب ثالث بسياسة قديمة ، غير سليمة فى المنطقة العربية . . الصلح مع إسرائيل . . أعمل صلح . . لكن لماذا اشتغلت عراب السلام؟ . . ليه؟ . . إنها « شغلة » لا تتفق مع ضميرك القومى ، ولا مع أمنك القومى . . وهى ضد عوامل التاريخ وعوامل الجغرافيا . . فلماذا نسوّق السلام للآخرين بما فيهم منظمة التحرير الفلسطينية ؟ ولماذا نغضب عندما يقوم طرف . . مثل الأردن . . بالصلح بعيدًا عنا ؟

إننا لم نتوقف لفرز هذه السياسة التى اندفع إليها أنور السادات . . إن السادات كان يؤمن بفكرة سيطرت عليه تمامًا ، وهى أن تكون مصر الدولة الأولى بالرعاية الأمريكية فى المنطقة . . وفى سبيل ذلك كان يتصور خطوتين . . الأولى : أن تحل مصر محل السعودية . . والثانية : أن تحل محل إسرائيل . . وبذلك تصبح أهم دولة لرعاية المصالح الأمريكية . . كلام فارغ . . لكن السادات كان مقتنعًا به ومارسه . . ولعب دور صانع السلام وعرابه . . لكننا لم نتوقف بعده لفرز هذه السياسة وتنقيتها وتعديلها . . وإذا بنا فى بؤرة توتر مع إسرائيل كانت آخر مظاهره أزمة الأسلحة النووية التى انفجرت مؤخرًا . . وأشعرتنا بالقلق على أمننا القومى .

□ إذن ما نحن فيه هو ثمار مُرة لسياسات قديمة . . زرعت فى عهد . . وأثمرت فى عهد آخر .

ـ هناك ٣ بؤر متوترة تؤثر علينا . . وعلى مصالحنا . . وعلى أمننا القومى . . السودان . . ولا تقل لى إنها غير قادرة على التأثير فى نصيب مصر من المياه . . ولا تقل لى

إنك ستضربها بالطيران لو تجاوزت الخطوط الحمراء . . وأفغانستان وما جاء منها . . وإسرائيل وما تفعله على المكشوف . .

والنتيجة أن محاور أمنك مكشوفة . . وممكن جدا بلد من البلدان ينكشف محوره . . أو محاوره الأمنية . . لكن لابد أن تعرف ما هى الأسباب . . لا أن تعرف أن مصلحته فى وقت من الأوقات اقتضت ذلك . . وتعرف كيف ستعالجه .

لكننا لم نتوقف لنراجع ما نحن فيه بقدر كاف . . واكتفينا بإلقاء المسئولية على الإرهاب . . وهنا نريد أن نتوقف لنقول كلامًا جادا . .

تقدر تقول إن الإرهاب ظاهرة إجرامية . . وظاهرة دولية . . وكلامنا يتراوح بين الاثنتين . . إنهم مجرمون . . وإنها ظاهرة دولية . . أليس كذلك ؟!

□ نعم .

ـ ما يتعلق بأنها ظاهرة دولية . . ليست هناك ظاهرة دولية ليست لها أسباب . . الظاهرة الوحيدة التى لا تزال مستعصية على العقل لأنها ملك الله هى ظاهرة الخلق . . أما فيما عدا الخلق فلا يمكن فيه ظاهرة بدون أسباب حقيقية !!

تعال لظاهرة الإرهاب . . الإرهاب إيه ؟! . . فئات أو ناس من المجتمع يخرجون عليه بعمل عنيف . . ويجب أن نفرق بينهم وبين المافيا . . ويجب أن نتساءل ما هى مصلحتهم وأهدافهم . . والحاصل أمامنا أنه نتيجة اختلالات فى التركيبات والتوازنات تسبب حالة مخيفة فى العالم . . تعال . . شوف . . الاتحاد السوفيتى انهار . . أوروبا الشرقية أصبحت فى الحالة التى عليها الآن . . الحروب الأهلية . . إرهاب أم لا ؟! . . إرهاب . . لكن سببه أن دولة كانت موجودة . . بقوة الحرب الباردة وبقوة توافق سياسى معين . . ولم تعد موجودة . . انتهت القبضة وسقط ما كان فيها وتهشم . . وأثر على العالم كله . . وأثر علينا نحن أيضًا . . ساعات نتصور أن ما يحدث فى العالم لا علاقة له بنا . . هذا غير صحيح . . نحن نعيش فى هذا العالم ومعرضون لما يجرى فيه من أحداث ومن تطورات . . ما جرى فى العالم هزنا نحن كذلك .

كان فيه نظام فى الحرب الباردة يمسك بالتناقضات فى مناطق مختلفة . . مثل ألمانيا . . ويوغسلافيا . . لا يجوز الاقتراب منها ، وإلا قامت الحرب العالمية . .

الحرب الباردة والتوازن الدولى كانا يغطيان على المشاكل الطائفية والعرقية والإقليمية والاقتصادية والأمنية فى دول كثيرة فى العالم . . عندما انفكت هذه القبضة انفجرت كل هذه المشاكل . . أنت عندك شبه القارة الهندية كله مولع . . جنوب أوروبا . . مولع . . الشرق الأوسط . . مولع . . والقرن الإفريقى وإفريقيا كلها أيضًا .

إذن أنت أمام ظاهرة عنف ، فرضها انهيار النظام الذى كان سائدًا فى مرحلة من المراحل . . ومن ثم ، فالإرهاب العالمى ظاهرة طبيعية لأن التماسك فى مجتمعات كثيرة انفلت . . وخرجت التناقضات المكتومة لتعبر عن نفسها بعنف .

زد على ذلك قوة الصورة المنقولة عبر قنوات الاتصال . . الناس أصبحت تشوف مستويات المعيشة المختلفة وتقارن . . زمان كنا نتكلم عن ثورة تطلعات . . النهاردة بقت التطلعات أمام الناس فى التليفزيون . . ومن الطبيعى أن يؤثر ذلك على مناطق العالم الفقيرة ، المحرومة . . وأن يضاعف ما تراه من غضبها وعنفها .

وفى الوقت نفسه نجد ظواهر ثراء مجنونة . . خذ واحد مثل سورو الذى ضارب بمفرده على الفرنك بـ ١٠ بلايين دولار . . كسب . . حاول المضاربة على المارك فاضطرت ألمانيا للتدخل . . وهذا الرجل ليس ظاهرة محدودة . . أنت الآن فى سوق عالمية ، بتولد فيه ثروات خرافية دون جهد . . أو بحدس أو شطارة . . هذا وضع ضاعف من الخلل . . والتناقضات . . بعضها طارئ لا نعرف فكرة عنه .

□ الظاهرة وصلت إلى الولايات المتحدة كذلك . . حادث أوكلاهوما الدليل . . والولايات المتحدة لم تتأثر سلبًا بانهيار الاتحاد السوفيتى . . بل على العكس . . كسبت . . فما سبب العنف هناك ؟!

ـ الجماعات الدينية المسيحية موجودة فى أمريكا طول الوقت . . وبعد حادث أوكلاهوما . . خرج كلينتون وأركان حربه يعترفان بالأسباب ويفتشان عما جد منها . . وسنقوم بالعلاج . . ولعل أبرز الأسباب هو اليمين المتطرف الذى نشأ فى مواجهة ازدياد حركة المطالبة بحقوق السود . . لقد شعر البيض أن أمريكا تتغير . . وأمريكا حاسة أنها فى طريقها لتصبح عالما ثالثًا .

هؤلاء البيض يعتقدون أنهم حماة أمريكا البيضاء النقية المسيحية ، لابد أن يدافعوا عنها . . ومن ثم كونوا جماعات سرية ، نفذت إحداها عملية أوكلاهوما .

لا شىء بدون سبب . . وعندما يقولون إرهاب عالمى . . نعم فيه إرهاب عالمى . . لكنه ظاهرة ناشئة ومصاحبة لقلاقل شديدة جدا يمر بها العالم . . ليست من فراغ . . ولا من الهواء .

□ **وفى مصر ؟!**

ـ أنا لا أسمى الظاهرة بالإرهاب . . أنا أسميها ظاهرة عنف . . لأن هنا لازم نفرق بين الإرهاب والعنف . . الإرهاب بطبيعته تصرف فردى لأسباب فردية . . نفسية ، عقلية ، عاطفية . . أما العنف ، فنحن نتكلم عن العنف الجارى فى النظام الدولى . . والعنف المتولد عن ذلك .

والمقصود . . أن العنف سمات مراحل معينة فى التحول التاريخى . . ونحن هنا يجب أن نفرق بين ما هو إجرامى وما هو سياسى . . العنف الموجود فى العالم ظاهرة سياسية ناشئة كرد فعل طبيعى لعنف آخر فى قوة التحولات الجارية فى العالم .

□ **حتى فى اليابان ؟!**

ـ فى اليابان فيه اغتراب طبيعى . . اليابان بتطلع من تقاليدها وتأخذ حاجات من العصر الحديث . . وفيها ناس تشعر بالقلق على مجموعة القيم الأصيلة . . القديمة .

هؤلاء ليسوا مجرمين ، قل هم أخطئوا . . لأنهم كتل اجتماعية تشعر بالغربة عن مجتمعاتها ولابد من البحث عن أسباب هذا الاغتراب . . والمجتمعات كلها فى العالم بتبحث بالعلم . . حادث أوكلاهوما لم يأخذوه كجريمة ونصبوا المشانق . . راحوا يفتشون عن أسباب الظاهرة . . ومن ينشطها !

□ **نعود إلى مصر .**

ـ قبل كل شىء لابد أن نتذكر أن ما يحدث فى مصر له أسباب فى الداخل وساهمت فيه أفغانستان . . سبب ده ، وأسباب فى الخارج ولا يمنع أن يستغلها أحد .

أنا ببساطة لابد أن أفرق بين الجريمة والعنف السياسى . . وعندى فى التفرقة عدة اعتبارات . . منها أن عدد الناس المشاركين فيها ليس بقليل . . أعداد كبيرة لا تنتهى . . بخلاف المتعاطفين معهم . . إذن فنحن نتكلم عن عشرات الألوف فى المجتمع . . إذن فهى ظاهرة ـ بالعدد ـ ليست فردية . وبالواقع ليست جريمة . . وإنما عنف سياسى .

ومنها . . أن المدة طالت . . الجريمة تنتهى بسرعة . . أما ما نحن فيه من عنف سياسى فواضح أنه لا ينتهى . . كذلك عدد الضحايا . . الأرقام التى أمامنا تقول إن حوالى ألف شخص قتلوا ما بين البوليس والجناة . . فى خلال السنوات القليلة الماضية . . هل تعلم أن هذا العدد أكبر من ضحايا حرب السويس (١٩٥٦) ، الذين لم يزد عددهم على ٩٦٤ قتيلاً !! أى أن عمليات ما نسميه بالإرهاب أصبحت تكلفتها البشرية مساوية ـ أو تزيد ـ على تكلفتك البشرية فى حرب غيرت التاريخ .

ثم نأتى للدافع . . هل هؤلاء الشبان يريدون مكسبًا ماديا . . أم أنهم يضحون بأنفسهم بغباء ؟!

إذن :

١ ـ العـدد .	٢ ـ مدة استمرار العمليات .
٣ ـ عدد الضحايا .	٤ ـ نقص الدافع المادى الظاهر .

لا يمكن أن يكون ذلك إلا نتيجة تصور عام خاص بمن يقومون بالعنف . . تصور خاطئ . . ليكن . . لكن لا تُبسطه وتخليه جريمة . . هذا أبسط خطأ فى القراءة . . لأنك لابد أن تقرأه بعين سياسية وليس بعين أمنية . . إجراءات الأمن ضرورة ، لكن نظرتك الأساسية لابد أن تكون نظرة سياسية .

طيب . . علاجك لها كيف ؟! . . هو علاج قاصر على الأمن مع إهدار فكرة القانون . . أنت بتقتل بالاشتباه . . مع إهدار فكرة القانون . . مع إهدار فكرة المواطنة . . أنت عندما تحولها بره القانون . . فالشاب الذى يطلق الرصاص سيحولها بره القانون . . طبيعى .

□ هو أصلاً بره القانون !

ـ نعم . . لكن الخروج بره القانون سيتصاعد . . الأمن يزداد قسوة . . والعنف المضاد له يزداد شراسة . . وهكذا . . حلقة مفرغة . وكل ذلك فى اعتقادى نتيجة قراءة خاطئة .

□ لقد بدأت الخيوط تتلاقى . . السودان وأفغانستان والعنف السياسى . . فكان ما كان فى أديس أبابا .

ـ حادث أديس أبابا ومحاولة الاغتيال التى جرت هناك كانت نتيجة لاختلاط محاور الأمن الثلاثة . . السودان (القرن الإفريقى) مع أفغانستان ، مع إسرائيل .

□ ما دور إسرائيل هنا ؟!

ـ أنت بدأت تردد أن إسرائيل لها مصلحة فى انهيار الأمة العربية ، وأنها لا تريد الدور المصرى ، وأنها تحرجنا بالنشاط النووى . . بدت قواعد عند الأمة العربية فى حالة غياب . . أين شعبية مصر فى العالم العربى ؟! . . . كلنا نعرف أن بيروت باستمرار مقياس لقيمة أى دولة فى المنطقة . . أنا أعتقد أن مصر غير موجودة هناك . . ولو كانت موجودة ، فذلك بحكم عبق التاريخ لا بحكم الأوضاع الراهنة . . ولا مصر موجودة فى كثير من العواصم العربية .

كل دولة إقليمية تتحقق لها إقليميتها بمقدار تأثيرها فيمن حولها . . الدولة المحلية محسوم وجودها داخل حدودها . . لكن مصر بدورها وطبيعتها وبموقعها الجغرافى هى دولة إقليمية . . تقاس قيمتها الإقليمية بتأثيرها خارج حدودها . . أين نحن فى خارج حدودنا . . فى بغداد ؟ فى الرياض ؟ . . فى دمشق ؟ . . فى تونس ؟ . . فى الجزائر ؟ . . فى الرباط ؟ . . لا نوجد .

عندما أحسست إن إسرائيل تحاول أن تأخذ دورك فى المنطقة فزعت . . فقط فزعت . . فى الدار البيضاء قال شيمون بيريز : إن مصر قادت المنطقة ٤٠ سنة . . خلونا نقود المنطقة وشوفوا النتائج . . الخلاصة أن محاور الأمن الرئيسية تداخلت ، وانكشفت ، وجعلت الفرصة سانحة للتطاول وللاغتيال . . وما جرى فى أديس أبابا كان نتيجة لذلك كله .

□ لقد تحدثنا عن محاولة الاغتيال بأبعادها الداخلية ، والآن فسرت لنا المناخ الخارجى الذى دفع إليها . . وقد تداخلا معًا فى نقطة واحدة هى السودان . . السودان كان نقطة التقاء بين ما هو داخلى وما هو خارجى . . فهل نحارب السودان ؟!

□□

كان السؤال فى حاجة لمزيد من الاستعداد . . كنا نجلس بالقرب من شاطئ البحر . . فى الساحل الشمالى . . فطلب هيكل القهوة . . وقام ليحضر سيجارا غير الذى احترق فى يده . . ووجدتنى أسرح قليلاً فى الأفق ، والسماء ، وطريقتنا فى التفكير .

إن من يراقب الطريقة التى نناقش بها مشاكلنا الفكرية والسياسية ، يكتشف خللا أساسيا فيها هو أننا لا نعترف إلا بما نعرف . . ولا نستوعب إلا أنفسنا . . ومن ثم ، نحن نصر على بقاء الأمور على ما هى عليه بعناد مذهل .

إننا نرفض فتح النوافذ على الآخرين حتى لا نصاب بالزكام . . ونرد على الرأى المخالف بعصبية ، ونرفزة ، وجرعات مكثفة من « الأنتى بيوتك » حتى لا تنتقل إلينا جرثومة الفكر الحر . . ولا نرهق العقل فى فحص ما يصدمنا . . ونواجه ما حولنا بأحكام مسبقة ، ترضينا وتريحنا . . فهذا عميل . . أو متطرف . . أو كافر . . أو شمولى . . أو حكومى . . وينتهى الأمر بما نحن عليه !

إن العقل هو العضو البشرى الوحيد الذى منحه الله حرية التخيل وحرية التفكير . . ولذلك فهو يتجاوز حدود الرأس . . غطاء العظم الذى يحميه . . ليسبح فى كون لا نهاية له . . لكننا حبسنا العقل وقيدناه بأقدامنا . . وختمنا عليه بالشمع الأحمر . . وكتبنا عليه « ممنوع الاقتراب أو المناقشة » .

إنه العقل ذو البعد الواحد . . الذى لا يكبر ولا يصغر . . لا يدخل ولا يخرج . . وينكمش وحيدًا فى غرفة باردة أشبه بالفريزر . . وهو ما وصفه محمد حسنين هيكل فى إحدى ندواته بأنه لا يرهق نفسه ، ويفضل الراحة والترهل من خلال اختيار واحد بين ثنائيات قاطعة وحادة « لا تحتمل أى تنوع أو تلوين » . . الروح أو المادة . . الإسلام أو القومية . . الأمر الواقع أو الطوفان . . الأبيض أو الأسود . . مثلاً .

فى الحوار الأخير مع هيكل يكرر : إننا لا نتوقف لقراءة ما حولنا قراءة سليمة . . ولا نتوقف لفرز ما مر علينا من تجارب . . لنأخذ منها ما يناسبنا . . ونلقى فى سلة التاريخ ما لم يعد مناسبا . . أو بلغة السوق . . ما فقد صلاحيته .

لذلك . . نحن نندفع فى طريق لا نعرفه ، وإن كنا نعرف أننا نندفع فيه بسرعة .

وبنفس السرعة نواصل الحوار :

□ أستاذ هيكل . . لقد تصاعدت تداعيات محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا ، واتجهت إلى السودان . . فى السودان نظام مثل الخنجر فى ظهرنا . . يسرب لنا المتاعب والقنابل عبر دروب الحدود . . لكن . . هل يمكن التسخين إلى هذا الحد؟ . . ثم . . ألم نمنح النظام فى الخرطوم فرصة ليحول أنظار السودانيين عن متاعبهم فى الداخل إلى أزمة فى الخارج ؟

ـ كنا نتكلم عن عدم القراءة السليمة لما كان . . لم نتوقف لنقرأ ـ كما قلت ـ ما فعلناه فى القرن الإفريقى . . وفى السودان . . إنها محاور دخلنا فيها . . ولا نزال . . وهو ما جعلنا نضيق مجالات الرؤية . . وتضييق مجالات الرؤية يضيق مجالات الحركة .

فيه موقف فاجأك . . هو محاولة الاغتيال فى أديس أبابا . . وتريد أن تحاسب الفاعل . . وقبل ذلك تبحث عنه . . وبما أن أثيوبيا قريبة من السودان ، وبما أن السودان معادٍ ، ومصر تتهمه بالإرهاب ، فإن الخرطوم كانت جاهزة للاتهام . . وأنا لا أستبعد ذلك . . ممكن . .

لكن . . لا يجوز أن تعلن اتهامك على هذا النحو المرتجل . . أنا أعتبر ذلك إهانة . . المفروض أن الآخرين يخشوننى . . يعملون حسابى . . هل معقول أن أخاف من الترابى ، والجرائد كلها قالبة الدنيا عليه ؟ . . نحن فى يوم من الأيام واجهنا الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية وإسرائيل . . وتعرضنا لغزو من الدول الثلاث . . ينتهى بنا الأمر للبشير والترابى . . هل هذا معقول ؟ . . الأول ضابط متواضع ، والثانى مثقف أقرب إلى شيخ طريقة . . هل يستحقان منا ما نفعل ؟

لكن . . عندما تضيق خياراتك ، تأخذ الأقرب إليك . . لأن السودان كان محصورًا فى دائرة المتهمين بالإرهاب من جانبك . . فكان من الطبيعى أن تتهمه بمحاولة الاغتيال . . ومرة أخرى . . ممكن يكون السودان وراء المحاولة . . ممكن . . لكن . . هذا الاتهام ـ حتى ولو صدق ـ لا يجوز أن يبعدك عن ظاهرة العنف السياسى فى الداخل . . وهى ظاهرة تستحق أن تنظر إليها بما هو أكبر من أنها جريمة . . استعمل أسلوب الأمن كما تشاء . . لكن عندما تستمر ظاهرة بهذه القسوة وطوال هذه المدة ، ويشارك فيها هذا العدد ، فلابد أن أتوقف للفحص والقراءة . . وأبحث عن الحلول

غير الأمنية . ولا أبعد نظرى عنها بما هو خارج الحدود مهما كان مهما . . فالأهم هو ما يجرى فى الداخل دائمًا . . لابد من نظرة مستنيرة . . مستنيرة .

□ هذا لا ينفى أن فى السودان نظامًا يأوى ، ويدرب ، من يحملون السلاح فى وجوهنا . . إنه يواصل المهمة « المقدسة » التى كانت فى أفغانستان . . لكنه يزيد على أفغانستان بالجوار ، وأنه عمق مصر الإستراتيجى جغرافيا وعمقها الحيوى مائيا .

ـ قبل أى شىء . . النظام فى السودان يواجه مشاكل . . ولا دخل لى بهذه المشاكل . . ونحن نعطيه قيمة أكبر من اللازم .

□ هـذا حـدث من قبل . . سنة ١٩٥٨ أثناء وجود جمال عبد الناصر ، ووجود عبد الله خليل فى السودان . . احتدمت الأزمة بين البلدين بسبب المياه . . وكادت مصر أن تحارب السودان . . وحركت بالفعل وحدات من قواتها المسلحة إلى أسوان .

ـ نعم . . حدث التهديد بالحرب كثيرًا . . لكن كبرنا على ذلك . . فى أزمة ١٩٥٨ . . كانت مصر على وشك الوحدة مع سوريا ، وقال جمال عبد الناصر : أنا داعية للوحدة العربية ، فكيف أحارب دولة عربية ؟ . . ما الذى جرى لنظام عبد الله خليل الذى هدد مصر بسلاح المياه ؟ . . سقط . . ثم . . جاء نظام إبراهيم عبود الذى وقع معنا اتفاقية جديدة للمياه .

ما أريد أن أقوله إن دولة مثل مصر لها تاريخ وإسهام حضارى لابد أن يعزز مركزها بما لا يسمح لها بأن تدخل فى معارك مع صغار . . قيمتك الحقيقية فى نفوذك المعنوى . . لكننا نهمل كل عناصر النفوذ المعنوى . . أين تأثيرك الفنى والثقافى ؟ . . كيف نقلت للعالم رد فعل ما جرى فى مصر بعد عملية أديس أبابا ؟ ذبحت العجول أمام مبنى التليفزيون . . ونقلت الصورة عبر الشاشة إلى الدنيا . . هل هذه حضارتك التى تتحدث عنها . . هل هذا تأثير نفوذ مصر المعنوى ؟ . . لقد نزلنا فى التصرفات إلى مستوى شيخ طريقة . . وهذه فى حد ذاتها مصيبة .

إن هذا هو صميم الأزمة . . أن تنزل لمستوى شيخ أمام خيمة . . يذبح ٤ عجول . . يذبحها على الهواء أمام كاميرات التليفزيون . . هل هناك خلط فى القيم أكثر من ذلك ؟

أول شيء علينا أن نفعله هو أن نحافظ على قواعد تأثير مصر المعنوية فى أقرب الدوائر إلينا على الأقل . . الدائرة العربية . . إننا نفقد هذه القواعد .

أين تأثيرنا فى الدوائر الثلاث التى نتحرك فيها ؟ . . فى الدائرة الإفريقية ، علاقتك بالدول التى يربط النيل بينك وبينها سيئة للغاية . . فى الدائرة العربية ، أصبحت إسرائيل حاجزاً ماديا ومعنويا . . فى الدائرة الإسلامية ، أين تأثيرنا . . بذبح العجول ؟

□ مصر دولة كبرى فى المنطقة . . نعم . . يجب ألا تتورط فى الأمور البسيطة . . نعم . . لكن . . قل لنا يا أستاذ هيكل كيف تتصرف مصر فى مواجهة التصرفات الصغيرة للنظام فى السودان مثل إغلاق جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، وطرد مهندسى الرى والاستيلاء على استراحاتهم . . إلخ ؟

ـ شوف . . أنا ما أعرفه هو أن مصر باستمرار كانت مهابة . . وعندما يحدث ما يؤثر فى مهابتها تكون هى المسئولة عن ذلك بالدرجة الأولى . . من الطبيعى أن يلقيك الصغار بالطوب والسباب . . لكن لو تصرفت مثلهم فقد فقدت هيبتك . . لو دخلنا فى الفعل ورد الفعل بين مصر والسودان سنصل إلى ما لا نهاية . . ولا أعرف من المسئول . . أنا أعرف أن الهيبة يحافظ عليها بالترفع فى التصرفات دائماً ، وهيبة أية دولة لا يؤثر فيها إلا تصرفاتها . . من حق الآخرين أن يفعلوا أى شىء . . من حقهم أن يتصرفوا حسب مزاجهم . . لكنك لا تجر إليهم . . وتفعل مثلهم . . وإذا أردت أن تردع ، فعليك أن تردع وأنت محتفظ بهيبتك . . ولا تنزل إلى المستوى الأدنى . لقد دخلنا فى مناورات صغيرة . . يعنى . . ما قيمة نميرى الآن ؟ . . كان يمكن أن تمنحه حق الإقامة كلاجئ سياسى ، ولكن بكل الشروط المتعارف عليها للاجئ السياسى ، وأولها ألا يحرج الدولة المضيفة . . لا يجيء إلى القاهرة ليتخذها خشبة قفز إلى الخرطوم . المعارضة السودانية فى مصر . . ليه ؟ هل أقبل لو حاربت المعارضة المصرية النظام من السودان ؟ . . ما هذه الألعاب ؟ . . ثم . . عندما نقول إننا نقدر على إسقاط نظام ، فلابد أن يسقط هذا النظام فى اليوم التالى !

فى يوم من الأيام سقط رئيس وزراء العراق بخطبة . . خطبة أوقعته . . لا تستعمل سلاحًا إلا إذا كنت قادرًا على الإصابة . . إذا لم تكن قادرًا على الإصابة ، اثبت فى مكان . لا تتحرك . . لا تتكلم . . لأن لا أحد يستطيع أن يقتطع من هيبتك إلا تصرفك .

□ **فى داخل الحكومة المصرية تناقض فى الموقف من السودان . . فهناك من يدعو للحرب . . وهناك من لا يتصور الحرب . . والناس لا تفهم رأسها من رجليها .**

ـ لأن الحكومة فى مصر لا تريد أن تنظر حولها . . لا تريد أن تقيم أوضاعها فى عالم متغير . . نحن نقول ونعيد ونزيد أن العالم متغير ، ومع ذلك فنحن لانزال أسرى ماورثناه من عهد سبق . . وعندما نأخذ القراءات نجدها خطأ وبدائية وسطحية . . هذا حرام . . مصر أكبر من ذلك .

□ **هل يمكن أن تدفع مصر للحرب ضد السودان ؟**

ـ لا أتمنى ذلك .

□ **إن المناخ الدولى الذى نتحدث عنه الآن يدفع الدول إلى حروب ونزاعات إقليمية محدودة . . تندفع محطات التليفزيون الإخبارية لمتابعتها بحماس ثم تصبح حروبًا منسية . . فما المانع أن تدفع مصر إلى حرب لا تريدها مع السودان . . ومعظم النار من مستصغر الشرر . . وتصريح رسمى واحد قد يلعب دور عود الكبريت . . وما خفى كان أعظم أو أسوأ .**

ـ لا أتمنى ذلك . . لأنها ستكون عملية عسكرية صعبة . . ولا تتوافر فيها شروط الحرب . . هناك شروط باستمرار فى الحرب . . منها :

١ ـ أن يكون للحرب هدف مقبول من الناس .

٢ ـ أن يكون الهدف مقبولا قانونًا من العالم .

٣ ـ أن يكون الهدف قابلاً للتنفيذ .

٤ ـ وأن يعرف من يفكر فى الحرب ماذا يريد منها ؟

وحرب مع السودان لن تكون مقبولة أخلاقيا من الشعب فى مصر .

□ **حتى لو دخلت المياه فيها ؟**

ـ الحرب ستؤدى إلى خراب فى المياه بصورة مزمنة . . وعليك هنا ألا تعبئ الناس قصدًا فى خطأ سيؤثر فى مستقبله على المدى البعيد . . ليس من حق أحد أن يفعل ذلك أبدًا .

□ نعود لشروط الحرب مع السودان ؟

ـ أولاً : الشعب المصرى لن يقبل أخلاقيا بالحرب مع السودان . . ولا الشعب السودانى سيقبل .

ـ ثانيًا : العالم لن يتركك . . وستكون كارثة .

ـ ثالثًا : هذه حرب فوق وسائلك . . لأن ببساطة أراضى السودان شاسعة جدا . . والسيطرة عليها وتأمينها مسألة مستحيلة . . وإذا قررت أن تضرب ضربة عقابية وتعود ، فهذا سيؤدى إلى تهديد دائم لمصالحك .

ـ رابعًا : ما الذى تريده من هذه الحرب ؟ . . إذا تصورنا أن الحرب فرقعة سلاح ، فهذا خطأ . . وإذا كانت الحرب انتقاما للكرامة ، فالثمن سيكون فادحًا . . هل تستطيع احتلال السودان ؟ . . هل تستطيع أن تهدم بيت الترابى على رأسه ؟ . . هل تستطيع أن تصل للخرطوم وتمسك به هو والبشير . . لا أحد يعرف ما الذى يمكن أن نجنيه من هذه الحرب . . ومن ثم فهى حرب تفتقد شروطها .

لقد كانت مصر قادرة بتأثيرها ونفوذها المعنوى على الوصول لكل قلب فى الخرطوم . . ماذا جرى لنا ؟ . . كانت جيوشنا العاطفية والتعليمية والثقافية والسياسية موجودة هناك فى الخرطوم . . ماذا حصل ؟ . . لماذا نريد استبدال جيوش المدافع ، بجيوش الحضارة ؟ . . التاريخ هو الذى كان يحارب معارك مصر فى السودان . . هل نريد أن نستبدل القنابل . . والنار بالتاريخ ؟ تفضل . . لكن هذه كارثة . . وخطأ أن نسمح بتعبئة الناس على عكس مصالحهم ، وقد ننجح فى إثارة أهوائهم وغرائزهم . . لكنها . . مرة أخرى كارثة .

□ إذن لا نستبعد وجود مؤامرة خفية ، تستغل مشاعر المصريين العاطفية بعد حادث أديس أبابا للتورط فى هذه الكارثة .

ـ ما المانع ؟ . . أنا فى كتاب «الحل والحرب » كتبت أن موشى ديان كان من شروطه للسلم الحفاظ على أمن إسرائيل . . لكن أمن إسرائيل كما كان يراه هو أن يدخل العرب فى تناقضات أمنية بعيدًا عن إسرائيل . . وهذا ما حدث . . ولو لم يكن ما يجرى مؤامرة ، فهو على الأقل غفلة من جانبنا .

□ **التناقضات العربية ـ العربية التى اعتبرها ديان شرطًا لأمن إسرائيل أصبحت الآن أمرًا واقعًا .**

ـ أصبح مكتسحًا . . وبقوة . . ديان كان يحلم بأن ينشغل كل بلد عربى بتناقض آخر بعيدًا عن إسرائيل . . شوف . . مصر الآن مشغولة بالسودان ، سوريا مشغولة بالعراق ، العراق مشغولة بالكويت ، والكويت مشغولة بالأردن ، والأردن مشغولة بقطر ، وقطر مشغولة بالسعودية ، والسعودية مشغولة باليمن . . إلخ .

ثم هبت صيحة جديدة . . إيران هى العدو . . وكل ذلك لصالح إسرائيل ، ولصالح أمنها . . ونحن غافلون . . لا نقرأ ما حولنا . . ولا نفهمه . . ولا نفرزه . . لا نحاول أن نقول من نكون ؟ وماذا نريد ؟ وكيف نتعامل مع ما حولنا ؟

إذا كانت هناك سياسات قديمة ، فاتت مدة صلاحيتها ، لماذا لا نختبرها ؟ لماذا لا نعيد النظر فيها ؟ . . إننا نختبر مياه الشرب . . فلماذا لا نختبر السياسات المختلفة ؟ . . لماذا لا نقيسها ؟ . . لماذا لا نتوقف قليلاً للاستيعاب . . ما الذى يدفعنا للاستمرار فى طريق محفور بالمطبات ؟ . . والمذهل أنك لو طرحت مثل هذه الأسئلة يقولون إننا نتفلسف .

□ **حتى لو كان السودان وراء محاولة اغتيال الرئيس ، فإنه لم يكن مباشرًا وترك مهمة التنفيذ لبعض المصريين .**

ـ المشكلة أن فى مصر ظاهرة عنف سياسى ، هى مشكلة تركتها لكل من يريد أن يستغلها ليستغلها . . لأننا مصممون على أن ننظر لهذه المشكلة نظرة غير واقعية . . وهو ما جعلها نقطة ضعف ينفذ منها الآخرون إلينا . . وطبيعى أن تُستغل ضدك .

السودان استغل هذه المشكلة ضدك ، واستغل علاقته بأثيوبيا . . وتصرف بذكاء . . أنا اتهمت أثيوبيا . . ومن ثم بدأت تتصرف ضدى . . ومن الطبيعى أن يستغل السودان ذلك أيضًا .

لقد أحسست بالإهانة من بيان المتحدث الرسمى الأثيوبى الذى وصف تصريحاتنا بالكذب ، وقال إن ما قالته مصر يستحق الازدراء . . استعمل كلمة ازدراء . . أنا مصر . نحن الذين أسسنا منظمة الوحدة الإفريقية الموجودة عنده . . فهل وصل بنا الأمر للازدراء .

علينا أن نتوقف . . ونفرز . . ونتخلص مما يعطلنا . . ونحتفظ بما ينفعنا . . ومن ثم لا مفر من التغيير . .

□ **هل التغيير المتوقع . . تغيير أشخاص أم سياسات ؟**

ـ أول حاجة . . تغيير رؤية للعالم ولدورك فى هذا العالم ، ولما تريد أن تحققه ، ولمن؟

لابد أن نعود ـ للأسف ـ للبديهيات . . ونسأل من نحن ؟ وأين نحن ؟ وإلى أين نحن ذاهبون ؟ . . هل تعرف سؤال هاملت الشهير : نكون أو لا نكون ؟ . . لابد أن أرجع له مرة أخرى . . هذه الأسئلة الأولية الفلسفية البسيطة هى التى تنبنى عليها كل السياسات من أول مياه النيل إلى إرهاب الصعيد .

أول شيء أن ندرك أين نحن ، وفى أى عصر نكون . . لقد اكتفينا بعلاقة ثنائية مع أمريكا . . وخلاص . . وفى الوقت نفسه انظر كيف تتعامل معنا أمريكا .

ثم . . يجب أن تكف الحكومة . . عن لعبة « الاستذكاء » على الناس . . فى كل الأمور . . الناس أذكى مما تتصور الحكومة . . لكن الحكومة لا تتعلم مما جرى لحكومات أخرى قبلها .

□ **هذا توصيف جيد للأزمة ، لكن كيف الخروج منها ؟**

ـ أنا فى ندوة معرض الكتاب فى بداية هذا العام قلت : إن سنة ١٩٩٥ هى سنة انتخابات . . أى سنة تغيير طبيعى . . كيف ستجرى هذه الانتخابات فى هذا المناخ؟ . مياه النيل مهددة . . النقابات فى أزمة مع الحكومة . وهنا نتساءل : لماذا الإصرار على عدم التغيير ؟ . . ما هى موجبات الاحتفاظ بهذا النوع من المسئولين فى الحكومة ؟ مصر تمتلئ بالكفاءات . . الأمل الحقيقى فى النقابات والجامعات ، وفى شتى نواحى الحياة . حتى فى مجال الأعمال هناك رجال يصلحون للخدمة العامة وقادرون عليها ، ستقدم لنا أجيالا جديدة من البشر . . أما معظم من نراهم على الساحة الآن فهم بقايا مرحلة فاتت .

ثم . . علينا أن نتحرر من هاجس الأمن . لأنه يدفعنا لمزيد من غلق الأبواب والنوافذ . . علينا أن نشجع الناس من خارج الحزب الوطنى . . لا داعى لدمغ الناس بالحزبية . . فهناك من هو حريص على البلد ويريد أن يخدمها ولا ينتمى للحزب

الوطنى . . ولا يرغب فى ذلك . . على الدولة ألا تخاف من الناس لأن الناس هم الذين وقفوا معها بعد حادث أديس أبابا . . وهم الذين يعرفون أن مصير البلد معلق بالرئيس . . الرئيس هو جسر العبور الوحيد إلى التغيير السلمى . . بدون عنف . .

□ فى ظل المتغيرات الدولية الحادة والمتلاحقة أليس من الجائز أن تتجاوز أزمة ما حدود الدولة التى وقعت فيها وتتجاوز طاقتهاعلى الحل ؟

ـ الدولة هى مايسترو الإيقاع . . الدولة هى التنظيم الممثل لإرادة كل المجتمع . . والدولة فى مصر بالذات هى القوة المؤثرة . . ولا أحد فى الوقت الراهن عنده بديل . . إن هناك قوى متعددة . . وأحيانًا متصادمة ، ولكن لا تزال الدولة فى مصر هى الأقوى، ومن ثم عليها أن تطرح جدول أعمال المستقبل لتدور حوله باقى القوى . . ومن السذاجة السياسية أن يكون الخيار الوحيد أمامنا إما الوضع الراهن وإما التيار الدينى . . يجب البحث عن بديل ثالث . . وهذا البديل هو مشكلة القوى المستنيرة . . وهنا قيمة مبارك . . إنه يقدر على إعطاء تصور للمستقبل . . نفتح حوله مناقشات وحوارات لخلق حركة للأمام . . فى التنمية . . فى العلاقات الدولية . . فى السلام . . فى الديمقراطية . . افتحوا . . لعل الحوار يُظهر كفاءات جديدة . . وأفكارا جديدة ، لكن المشكلة أننا عندما نطرح أفكارًا للحوار والنقاش نجد الحكومة ترد إما بالتجاهل . . وإما بالعنف وكأننا نلاعب الحكومة « شطرنج » ، فإذا بها ترد على قطع اللعب التى فى أيدينا بقطع حقيقية . . فيل حقيقى . . وطابية حقيقية ، وكأن الفكر الذى يناقش يواجه بالمدافع .

□ فى الوقت الذى حولنا فيه ما جرى إلى مهرجان كانت إسرائيل تناقش احتمالات المستقبل فى مصر .

ـ والصحافة الأمريكية نفس الشىء .

□ وعلينا نحن أيضًا أن نهتم بأنفسنا ومستقبلنا بنفس الأسلوب العلمى كذلك .

ـ لا مفر من ذلك .

٢

لادِين بلا سياسة !

- □ قابلت حسن البنا فى « أخبار اليوم » واعتذرت عن تحرير جريدة الأخوان
- □ البنا أول من حول الاجتهاد إلى فعل عام
- □ إذا كان عبد الناصر والسادات على باطل ، فمن حق الشباب البحث عن هوية
- □ غطاء الرأس راية استسلام واحتجاج ضد عدم الفهم
- □ تصرفنا كمجتمع بترولى دون أن يكون لدينا بترول
- □ أملك أكثر من ١٧٥ ألف وثيقة مصرية
- □ العمل الخفى يسيطر بجنون على السياسة العربية
- □ إذا شكا شعب، فلابد أن يراجع الحاكم نفسه .

بين برشامة القناعة وجرثومة الشجاعة سنوات طويلة من الصمت عاشها خالد محيى الدين قبل أن يتكلم وينشر مذكراته السياسية تحت عنوان « الآن أتكلم »

وعندما تكلم الضابط . . الفارس ، شنق الثورة على سطور كتابه وحولها من وردة إلى حجر . . وقتل أنبياءها ومغنيها . . وأثار ما قاله الغبار . . ووصفه البعض بالانتحار . . واستغله البعض الآخر فى الخروج من الحصار . . ومن جديد اشتعل النقاش حول الثورة ، وكأن عمرها ٤٠ يوما لا ٤٠ سنة .

ومن جديد ، تساءلنا عن وثائق الثورة وأوراقها ومحاضرها . . أين هى ؟ . . من كتبها؟ . . ومن عبث بها ؟

إن إعادة السؤال ـ الذى ظل بلا إجابة ـ يعنى أن شهادات البشر ـ مهما كانوا ـ تجنح للهوى . . ويعنى أن المستندات فى النهاية هى التى ستحرق كل أكاذيب التاريخ . . إنها عود الثقاب المفقود .

وآخر من تساءل عن وثائق الثورة المؤرخ المعاصر د. رءوف عباس . . وهو يناقش ـ مع زميله المؤرخ الجاد د. يونان لبيب رزق ـ فى معرض الكتاب فى يناير ١٩٩٣ ، شهادة خالد محيى الدين . . وتعجب د. رءوف عباس من وجود وثائق أسرة محمد على فى دار المحفوظات القومية وعمرها يزيد على ٢٠٠ سنة ، وفى الوقت نفسه لا يوجد أثر لوثائق ثورة يوليو وهى « بنت إمبارح » فى عرف المؤرخين . . وهنا كان لابد أن يقفز اسم محمد حسنين هيكل . . الذى يملك أضخم أرشيف للوثائق فى مصر . . وفكرت على الفور فى أن أحاوره .

بعد أيام جمعتنى الصدفة بالرجل الوحيد الذى يستطيع الإجابة عن السؤال . . سامى شرف . . مدير مكتب جمال عبد الناصر ، وكاتم أسراره ، وحامل مفاتيح خزانة أوراقه . . والذى لم يتردد فى أن يكشف ماعنده .

ذات صباح طلب جمال عبد الناصر من سامى شرف طلبين :

١ ـ حصر الضباط الأحرار .

٢ ـ إحضار محاضر اجتماعات مجلس قيادة الثورة .

بالنسبة للطلب الأول ، اقتضى الأمر تكليف خمسة أشخاص من ضباط يوليو بتنفيذه . . إن تنظيم الضباط الأحرار كان سريا . . وكان متشعبًا فى أسلحة الجيش ووحداته المختلفة . . ولم يكن أفراده يعرفون بعضهم البعض . . بل إن هناك ـ حسب ما قاله سامى شرف ـ من كان مجندا فى التنظيم ، ويدفع اشتراكه الشهرى (٢٥ قرشا) ولكن لا يعرف الكثير عنه .

فى حجرة أغلقها على نفسه ـ فى مبنى السكرتارية الخاصة بجمال عبد الناصر ـ قام شمس بدران ـ الذى أصبح وزيرًا للحربية فيما بعد ـ بترتيب أسماء الضباط أبجديا ، ثم كتب الكشوف على ورق مسطر بحبر أخضر . . وبعد أن قرأ جمال عبد الناصر الكشوف ، أمر بحفظها فى ركن الوثائق التى تحمل درجة « سرى للغاية » ، وهى أعلى درجات السرية .

والمعروف أن درجات الوثائق هى : محظور . . سرى . . سرى جدا . . وسرى للغاية . . ووثائق الدرجة الأخيرة من السرية ، كان مسئولا عن حفظها فى مبنى السكرتارية الملحق ببيت جمال عبد الناصر ، شخص واحد هو توفيق عبد العزيز أحمد، نجل الفنان عبد العزيز أحمد الذى كان عضوًا فى فرقة نجيب الريحانى المسرحية . . وكانت هذه الوثائق محفوظة فى حجرة خاصة بالدور الثالث فى المبنى ، أعدت لهذا الغرض ، ولم يكن مسموحًا لأحد بدخولها . . بل إنها لم تكن تفتح إذا ما تغيب المسئول عنها .

ولم تستثن هدى عبد الناصر من الحظر . . لقد تخرجت فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية . . وانضمت لطاقم العمل فى السكرتارية . . لكنها لم تحظ ـ بتعليمات مشددة من جمال عبد الناصر ـ بأى ميزة لا تمنحها لها درجتها الوظيفية . . ولم يسمح لها فى ذلك الوقت بدخول خزانة الوثائق .

□□

لم يعرف سامى شرف للوهلة الأولى أين محاضر اجتماعات مجلس قيادة الثورة . . ولم

يجدها رجاله فى مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيرة . . لكن . . بعد أقل من ساعة ، كان يعرف أنها موجودة عند سكرتير مجلس قيادة الثورة : كمال الدين حسين . . إنه هو الذى يسجل ما يقال من كلام ، وما ينتهون إليه من قرارات .

وكلف سامى شرف شخصا آخر ـ هو عبد المجيد شديد ـ بإحضار الوثائق من كمال الدين حسين الذى كان خارج السلطة فى ذلك الوقت . . ولكن الحدة التى عُرفت عن كمال الدين حسين وقفت عقبة فى طريق نجاح مهمةعبد المجيد شديد . . وعرف جمال عبد الناصر بما حدث ، فقرر أن يتدخل بنفسه .

بعد أيام فوجئ سامى شرف بتليفون من كمال الدين حسين الذى قال بأسلوبه الصارم المعتاد :

ـ اسمع . . سأرسل لك ظرفا باسم جمال عبد الناصر .

جاء الظرف مع أحد أقارب كمال الدين حسين ، الذى طلب إيصالا بالاستلام لم يوقع عليه أحد . . وعندما فتحه سامى شرف ، وجد بداخله ملفا أو حافظة أوراق بها ٥٠ ورقة . . هى كل وثائق مجلس الثورة . . والملف لونه « بمبى » كالح بفعل التراب والزمن . . وبعد أن اطلع عليها جمال عبد الناصر ، أمر بحفظها فى ركن الوثائق السرية للغاية .

□□

أدهشتنى هذه الرواية . . بل ربما أصابتنى بالذهول . . محاضر اجتماعات مجلس الثورة التى نشرت الصحف أهم ما فيها تصبح وثائق سرية للغاية . . ثم تختفى بعد ذلك . . وتذكرت أننى كنت فى سنة ١٩٨٢ ـ ولمدة ٦٠ يوما ـ أسجل مذكرات اللواء محمد نجيب فى بيت المنفى بالمرج . . وكان البيت هو القصر الريفى للسيدة زينب الوكيل ، زوجة مصطفى النحاس . . وهى المذكرات التى صدرت فيما بعد فى كتاب «كنت رئيسًا لمصر » . . وذات صباح ـ وبعد أن امتدت جسور الثقة بيننا ـ أخرج محمد نجيب من صدره « دوبارة » قديمة فى آخرها مفتاح يهدده الصدأ بالتآكل ، وقال :

ـ تفضل . . هذا مفتاح المخزن الأرضى الذى أحتفظ فيه بتاريخى وأوراقى . . خذه . . وفتش على ما ينفعك !

ونزلت إلى الدور الأرضى حيث المخزن المهجور . . وفتحت الباب بصعوبة . . ودخلت وأنا أشعر بالخوف من الثعابين . . وكان المخزن يمتلئ بالصناديق والأوراق والكتب والتراب الذى كشفت حركة الحشرات والزواحف عليه أنواعها . . وقادتنى الصدفة إلى ظرف أصفر قديم ، يكاد يذوب بين الأصابع . . وفى هذا الظرف ، وجدت وثائق أخطر من محاضر مجلس قيادة الثورة . . إنها تحقيقات قضية ضباط المدفعية . . التى تولاها زكريا محيى الدين . . وأدت إلى انقسام ضباط الثورة إلى جزأين . . جزء فى السلطة وجزء فى السجن .

والوثائق مكتوبة على أوراق رسمية . . لها علامات مائية واضحة . . ولو عرضتها للضوء لوجدت العلامات المائية عبارة عن هلال وثلاثة نجوم (رمز علم وحكومة مصر قبل الثورة) ولقرأت بجانب هذا الرمز عبارة « الحكومة المصرية » .

والوثائق مكتوبة على الماكينة الكاتبة لسكرتارية مجلس الثورة . . ومطبوعة بالنوشادر . أسلوب النسخ الوحيد فى ذلك الوقت .

وقد نشرت ما جاء فى هذه الوثائق فى كتاب « نهاية ثورة يوليو » ، بعد أن صورت الوثائق أكثر من نسخة ، متصورًا أن هناك من سيسعى للحصول على الأصل منى . . ولكن تصورى كان ساذجًا !

وقبل أن أنهى مهمتى فى المرج ، مع محمد نجيب ، فوجئت ذات يوم بواحد من أقارب الرئيس الأسبق يساومنى على أوراق بخط يد محمد نجيب ، ورزمة من خطاباته إلى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، ومفكرة جيبه ، ومفكرة مكتبه ، وأوراق أدعيته . . وكان الثمن الذى اشتريت به هذه الأوراق أقل بكثير من القيمة التاريخية لسطر واحد فيها . . ومرة أخرى لم أجد جهة واحدة تسأل عن هذه الوثائق .

وفيما بعد ، قال لى د. يونان لبيب رزق : إنه سمع أن وثائق التنظيم الطليعى اشتراها بائع روبابيكيا . . فلم أتعجب .

كما أن الكثير من وثائق الدولة المصرية تباع فى الخارج ، مثل الآثار والمخطوطات المهربة . . فلا أحد يهتم . . ولا أحد يتألم . . ومن مصلحة الكل أن تختفى الوثائق حتى يكتب عن عصره ما يشاء .

فى الأجزاء الثلاثة من موسوعته الضخمة « حرب الثلاثين سنة » ينفرد محمد حسنين هيكل بنشر أخطر وثائق الثورة والدولة ، خلال فترة حكم جمال عبد الناصر ، بما فى ذلك الوثائق التى كانت محفوظة فى بيت جمال عبد الناصر . . فمن أين حصل عليها ؟

ويصبح السؤال أكثر قيمة عندما يقول لنا سامى شرف : إن هيكل لم يطلع على وثائق عبد الناصر فى حياته . . ولم يدخل خزانة الأسرار المكتوبة . . بل إن سامى شرف يتحدى أن يكون قد حدث ذلك . . ثم يضيف : إن هيكل لم يحتفظ فى ذلك الوقت إلا بنسخة من الرسائل التى كان جمال عبد الناصر يكلفه بكتابتها إلى بعض زعماء وحكام العالم .

إذن . . كيف حصل هيكل على هذه الأوراق . . ومنها الأوراق التى عليها تعليمات جمال عبد التاصر إلى سامى شرف نفسه ؟

الإجابة عن هذا السؤال فرضت مساحة كبيرة من التحريات الدقيقة . . مع أشخاص يمكن أن نثق فيما يقولونه . . لسبب بسيط أنهم كانوا شهودًا فى المطابخ والكواليس . . وقد وجدت فى طريقى أكثر من رواية . . لا يملك سوى المنطق الشخصى قبولها أو رفضها .

رواية تقول إن ثلاثة رجال جاءوا فى وقت واحد بعد القبض على سامى شرف ـ فيما عرف بمؤامرة ١٥ مايو ١٩٧١ ـ إلى منطقة الوثائق فى بيت جمال عبد الناصر ، هم محمد عبد القادر حاتم ، ومحمد حسن الزيات ، ومحمد حسنين هيكل . وبينما كان حاتم والزيات يفتشان عن ملفاتهما الشخصية ، كان هيكل ـ ومعه جهاز تصوير ميكروفيلم وفنى مختص ـ يريد نقل أرشيف الوثائق إلى أفلام .

ورواية ثانية تقول : إن أنور السادات قال لأشرف مروان ، الذى أصبح بعد ١٥ مايو ١٩٧١ فى مكان سامى شرف : « افتحوا الخزائن لهيكل » . . وهكذا أتيح لهيكل تصوير الوثائق .

ورواية ثالثة تؤكد قائلة : إن هيكل لم يدخل بيت عبد الناصر بعد وفاته إلا لمواساة زوجته السيدة تحية كاظم ، وإنه لم يقترب تماما من مبنى السكرتارية حيث الوثائق . . وتضيف هذه الرواية : إن هيكل لم يكن فى حاجة إلى كل هذا اللف والدوران للحصول

على ما يريد . . فقد نقلت كل وثائق وأوراق عبد الناصر إلى بيت السادات ، الذى أتاح لهيكل أن يطلع ويصور ما يشاء منها .

والذى نقل الوثائق إلى السادات هو أشرف مروان الذى لم يتردد هو الآخر فى الحصول على صورة منها . . وهى النسخة التى لا يزال يحتفظ بها فى لندن . . إنه يملك الكثير جدا من الوثائق حيث يعيش ويعمل .

□□

هل كتب جمال عبد الناصر مذكرات بخط يده ؟

منذ ١٠ سنوات ، وفى ندوة بالمركز الثقافى الهولندى ، سأل د . أحمد عبد الله ـ الزعيم الطلابى لجامعة القاهرة فى بداية السبعينيات والباحث السياسى فيما بعد ـ هذا السؤال إلى هدى عبد الناصر . . التى أجابت بالنفى . . بل وأصرت على النفى .

ويقول لى د . يونان لبيب رزق : ـ إنه فى أوائل السبعينيات شكل الأستاذ هيكل لجنة مصغرة تمهد لإنشاء مركز لوثائق عبد الناصر ، فى مؤسسة الأهرام . لكن المشكلة ـ كما قال الأستاذ هيكل ـ أن عبد الناصر كان يصدر أغلب تعليماته شفهيا أو تليفونيا . . ولم يكن يميل إلى إصدارها مكتوبة .

والمقصود . . أن أوراق عبد الناصر التى بخط يده كانت نادرة . . ومن ثم لا تصلح لكتابة تاريخه من خلالها .

وهذا ما جعل لجنة كتابة تاريخ الثورة التى شكلها أنور السادات عملا يتسم بالأهمية . . ولكن شيئًا ما جعل اللجنة لا تواصل عملها . . وجعلنا نتساءل : أين أوراق ووثائق هذه اللجنة ؟ . . هل أهدرت مثل الوثائق والأوراق الأخرى ؟ . . أى أن هذه اللجنة بدلا من أن تحل مشكلة ، أضافت أخرى !

□□

أتصور أن العبارة ـ المفتاح فى مثل هذا الموضوع ، قالها صلاح حافظ ـ قبل رحيله ـ ونشرها فى روز اليوسف .

ـ نحن فى مصر أطول تاريخا وأضعف ذاكرة .

وهكذا . . . رحت أبحث عن الحقيقة ـ أو جزء منها على الأقل ـ عند محمد حسنين هيكل .

□□

أكثر من « بوابة » للحوار يمكن الدخول منها إلى مدينة « الرأى » التى يسكنها ويحكمها محمد حسنين هيكل .

إنه واحد من أهم ١١ صحفيا فى العالم . . وكتبه تترجم إلى ٣١ لغة . . وتنشر مقالاته فى أشهر الصحف الأمريكية والبريطانية . . وتدعوه جامعات الدنيا لاستعراض خبراته . .

ومع ذلك، لا نجد مطبوعة عربية واحدة ، تحتمل ما يكتبه لمدة طويلة ، متصلة . .

وعندما وافق على أن يقول ما عنده وجها لوجه ، فى نقاش مفتوح ، وسط زحام جمهور « معرض الكتاب » ، مرة واحدة كل سنة ، لم تستمر التجربة (*). . ووجدت من يخشاها ، ومن ثم انتقل التربص برأيه من القلم إلى اللسان .

لكن . . هذا لا يمنع أن « بوابات » الحوار الصحفى معه لا تزال مفتوحة . . بلا حذر ، وبلا حرج . . وبدون جمارك تسأل عن المحظورات . . أو الممنوعات . .

ونحن لا نجد سوى هذه البوابات لنعرف ما فى عقله من أفكار ، وما فى ذاكرته من أسرار ، وما فى خزانة وثائقه من معلومات . . وهذه الأدوات ، والمشارط ، تتجه مثل سهام النار إلى قلب الأحداث المجنونة التى تقفز من حولنا . . وجعلتنا نشعر أننا نعيش فى سيرك اختلطت فيه الوحوش الكاسرة بالمهرجين .

هزيمة جورج بوش ودموع العرب التى ذرفوها عليه . . نحن وبيل كلينتون والرؤية التى لم تكن قد ثبتت بعد فى سماء البيت الأبيض . . الإسلام السياسى وحوادث العنف . . المرأة والسلطة فى زمن الوسائل الخفية التى تحكم السياسة . . وغيرها من

(*) كان محمد حسنين هيكل ضيفًا دائمًا على ندوات معرض الكتاب ، لكنه فى ذلك العام (عام ١٩٩٣) لم يدع لندوته السنوية . وقد نشر حوارى معه فى روز اليوسف على ٤ أسابيع (من ٢/١٥ إلى ٨/ ٣/ ١٩٩٣) ، ووجدتها فرصة لأن يتجاوز الحوار موضوع وثائق عبد الناصر إلى آفاق أخرى .

القضايا التى تشغلنا ، ويغطيها الضباب ، وتجعلنا نقف على أظافرنا ، ونشب لعلنا نطول الأفق ، ونرى ما يخفيه المستقبل من مفاجآت .

ويملك هيكل أسلحة تشريح مثل هذه القضايا . . فهو لا يزال على اتصال بأشخاص يعرفون مفاتيح العالم . . وفى مكتبته ما بين ٢٠ ـ ٢٥ ألف كتاب . . وفى الكمبيوتر الذى يحتل إحدى حجرات مكتبه ـ المطل على النيل ـ ما بين ٧ ـ ٨ ملايين كلمة . . ثم إنه يسجل فى أوراقه الخاصة ما يسمعه وما يراه . وهو ما يعتبره . . « غير قابل للنشر » . .

بالإضافة إلى وثائق حصل ـ أو عثر ـ عليها . وبعضها مجرد قصاصات صغيرة بخط زعماء العالم ، وعلى رأسهم بالقطع جمال عبد الناصر .

ومن ثم ، كانت قضية وثائق الثورة وأوراق جمال عبد الناصر وما جرى لها إحدى بوابات الحوار .

إن كثيرًا مما يجرى حولنا ، أو يمر علينا يجعلنا نفتقد هيكل ، ونتذكره ، ونتمنى معرفة رأيه فيه . . وخاصة أنه يؤمن بالقول المعروف لفيلسوف قديم « قل كلمتك وامضِ » . كما أنه يؤمن ـ على حد قوله ـ بأن مستقبله وراءه . . والمقصود أنه صنع نفسه وحفر تاريخه ، ولم يعد يبغى سوى وجه الحقيقة المجردة . . ومهما اختلفنا أو اتفقنا معه ، فإنه يظل واحدًا ممن يستحقون الإنصات . . . لو تكلموا .

وقد جرى الحوار مبكرًا فى صباح بارد . . فهو ينام قبل منتصف الليل . . ويستيقظ قبل أن تطرق الشمس أبواب السماء . . ويمارس رياضة خفيفة ، لم يمنعه عنها إلا حادث عارض وقع له مؤخرًا فى « الغردقة » استدعى شد أطراف الجرح المفتوح بعشر «غرز » اطمأن على سلامتها الدكتور إبراهيم بدران .

إنه رجل منظم جدا بطبيعته . . الساعة الثامنة صباحًا تجده جالسا إلى مكتبه حتى الساعةالثالثة بعد الظهر . . وهو يذكرك بإصرار نجيب محفوظ على الإبداع المنظم والمتصل يوميا .

وإلى جانب مكتبه تمثال للكاتب المصرى الجالس القرفصاء . . رمز الدأب على

الكتابة منذ ٤ آلاف سنة . . وهو الدأب الذى لا تُخطئه فى هيكل وهو يعمل . . أو وهو يتكلم ـ بكامل أناقته ـ والسيجار فى يده . . أحيانًا يشعله . . وأحيانًا يكتفى بإشعال عود الكبريت . . حسب سخونة حماسه لما يقول .

وقد عودنا هيكل على المفاجأة عندما يكتب أو يتكلم . . ويمكن أن تكون المفاجأة فى رقم يمس الناس . . أو تكون المفاجأة فى سر تاريخى يكشفه بعد أن كاد يختنق تحت تراب الإهمال والنسيان .

وأتصور أن أولى مفاجآت هذا الحوار تاريخية . . كان الحوار قد بدأ من محطة الإسلام السياسى . . وراح هيكل يتدفق ، جامعا فراشات الكلام من حقول متنوعة . وبينما يلتقط فراشة ملونة من حقل التاريخ ، قال :

ـ حسن البنا كان يجلس فى مكتبى فى « أخبار اليوم » .

□ تقصد المرشد العام الأول لجماعة الإخوان المسلمين ؟

ـ نعم . . كان فى مكتبى ينتظر عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية كى يعطيه أحد بيانات الجماعة . . وقد عرض حسن البنا علىّ بعد ذلك سكرتارية تحرير جريدة «الإخوان المسلمون » . . ولكننى اعتذرت . . كان ذلك فى سنة ١٩٤٦ . فى وقت أراد فيه الإخوان إصدار جريدة لهم . وقد عهدوا بالمشروع إلى عبد الحليم الغمراوى وكان محررًا فى « الأهرام » . . ولسبب أو لآخر ، قال الغمراوى للبنا : إننا بحاجة إلى شبان للجريدة . . وكان يبدو وقتها أننى يمكن أن أكون صحفيا واعدًا . . فرشحونى . . وذهبت إلى حسن البنا فى مقره العام بالحلمية ، بعد أن أخذت موعدًا بعد صلاة الجمعة . . ودخلت المسجد ، فى وقت كان البنا يخطب فيه خطبته الشهيرة التى وصف فيها الإخوان برهبان الليل وفرسان النهار . . وبعد أن انتهى البنا ، فتحنا موضوع الجريدة . . وأتذكر أننى سألته سؤالا مهنيا عن قارئ الجريدة . . من يكون ؟ . . وكيف تصل إليه؟ فقال : « إذا كنت تتحدث عن التوزيع ، فلا تقلقْ من هذه الناحية» . . أنا كنت أتساءل عن محتوى الجريدة ونوعية قارئها . . وهو سؤال سهل وصعب فى وقت واحد . . لكنه قال إن مصر بها ٤ آلاف قرية ، كل قرية منها بها مكتب دعوة يضم ١٢ فردًا . .

ولو اشترى الجريدة هؤلاء فقط ، لكان التوزيع ٤٨ ألفا قبل النزول إلى الباعة .

□ هذه نشرة لا جريدة .

ـ لذلك قلت له إن هذا غير ممكن . . وأضفت : إننى أخشى أن أقول إن فى دعاوى الوطنية ودعاوى الدين ، والدعاوى الكبرى لابد أن نفرق بينها وبين سلعة تباع ، لأن القارئ عندما يدفع قرشا فى صحيفة ، فهو يختار ما يرضى مزاجه ، فلا تقيده بما تتحدث عنه . . ابعد عنه موضوعات الدعوة ، والوطنية . . دعه يختار السلعة التى يعتقد أنها أنفع له . . ولا تضيع وقتك معه . .

وكان من المتوقع أن نختلف . . وهو ما حدث . . ثم بعد ذلك سافرت حتى لا يتكرر العرض .

□ لكن . . رفض العرض لم يمنع عدسات كاميرتك الشخصية من التقاط ملامح حسن البنا النفسية والقيادية .

ـ أتفق أو أختلف مع حسن البنا . . لكن هو رجل بلا جدال أنشأ حركة . . ووضع أساسًا لفكرة استمرت طويلاً .

□ بمعنى ؟

ـ كل جيل يحاول أن يعيد ترجمة مواريثه إلى لغة الواقع . . مثلا الشيخ محمد عبده . . فى بداية هذا القرن . . اجتهد فكريا . . وكان اجتهاده أساس المدرسة السلفية الحديثة . .

أما حسن البنا ، فقد اقترب بالاجتهاد الدينى من الفعل العام ، وفعل ذلك داخل ملابسات سياسية وإقليمية معينة ، لم يكن معزولاً عنها .

يعنى فكرة تشجيع الإخوان لم تكن فى عزلة عن فكرة مقاومة أغلبية الوفد وهذا من طبائع التطور فى المجتمع . . إن كبار المتعاطفين مع الإخوان من الساسة القدامى كانوا من البارزين فى التوجه الملكى . . وأقول « التوجه الملكى » بمعناه الحسن . . وليس السيئ . . لأننا مع الأسف الشديد ، من كثرة استعمالنا لكلمات فى حملات ما ، تم

تعبئة هذه الكلمات بإيحاءات سيئة . . أنا أحاول إعادة الاحترام لبعض الكلمات حتى نتقيها من شوائب العيب . . لقد جعلنا كلمة « الانفتاح » من الكلمات السيئة ، رغم أنها كلمة طيبة . . وجعلنا كلمة العدل الاجتماعى موازية لمعنى سيئ . . وهكذا .

□ قل لنا مثلاً للسياسيين الذين تقصدهم هنا !

ـ على ماهر مثلاً . . كان من رجال القصر . . وكان متعاطفًا مع الإخوان . . وكان مهتما بقضية الشرق والرجوع للسابق .

□ لقد تطورت وتغيرت حركة الإخوان . . ويمكن أن نقول تهورت . . وخلقت فيها بعد ما يسمى الآن بالإسلام السياسى . . ومن رحم هذه الحركة خرجت جماعات العنف التى تطلق الرصاص .

ـ أحس أننا فى كثير من المرات نعالج أمراضنا أو مشاكلنا على طريقة السحر والأحجبة ، بينما نجد أنه إذا أصيب أحد بمرض ذهب إلى الطبيب المختص . . وقبل أن يقترب الطبيب من المرض يطلب رسم قلب وتحليل دم وأشعة على الجسم كله تقريبًا . . وعلى ضوء النتائج يكون التشخيص . . يحدث ذلك الآن فى كل شىء . . لا تقوم بأى خطوة إلا إذا عرفت أين تذهب . . بما فى ذلك السياسة . . والسياسة بطبيعتها هى بالدرجة الأولى « رغبة تأمين » . . كل نظام هدفه أن يبقى فى السلطة ، وبالتالى فهو يطوع ما لديه من برامج وأفكار للبقاء والاستمرار فى السلطة . . لكنه لا يريد السلطة فى حد ذاتها . . وإنما لتنفيذ ما يعتقد أنه صحيح أو مناسب !

□ كلمة « تأمين » توحى دائمًا بالأمن . . الأمن بمفهومه المباشر .

ـ إننا لا نقصد الكلمة بهذا المعنى الذى يستدعى صورة البوليس الممسك بعصاه . . لكن نقصد الكلمة بمعناها الأكبر . . وهو أنك تستطيع أن تمارس حياتك العادية دونما تهديد . . وتستطيع السلطة أن تنفذ برامجها دونما اضطراب . . ومن ثم يدخل تحت « التأمين » علاقة السلطة فى الحوار مع كل الأطراف والقوى الأخرى .

□ **هذا يتفق مع ماسبق أن قلته . . إن هدف المجتمع فى النهاية هو تنمية مصالحه وصيانة أمنه .**

ـ لكن المشكلة أن بعض المجتمعات فى لحظات الحصار ، أو لحظات الضيق والأزمات ، يلجأ إلى أبسط أنواع الأمن . . يلجأ إلى أمن القمع والقوة ، دون أن ينتبه إلى ما تشيره تحاليل الدم وصور الأشعة . . فتكون ضرباته غير مؤثرة . . وليست موجهة مباشرة إلى البؤرة الميكروبية .

□ **هل توافق على مصطلح « الإسلام السياسى » ؟**

ـ طبعا . . فهناك إسلام سياسى . . وكل دين به سياسة . . فالسياسة هى تسيير أمور الناس وتنظيم شئونهم والدين يعطى الناس إجابات عن كل ما يطلبونه وما يتصورون أنهم يريدونه .

الدين إذن سياسة . . إنما العبادات خارج السياسة . . وكيف لا يكون الدين سياسة ورئيس الدولة فى إنجلترا ـ على سبيل المثال ـ هو رأس الكنيسة ؟ إنما إذا قلت إنك تريد عمل فصل ، فهذه قضية أخرى ، يجب أن يقبلها المجتمع ، ويجب أن يعتبر الدين قضية متعلقة بالتاريخ ، وأنه وعاء من الثقافة . . أما إذا لم يحدث ذلك ، فلابد أن تدرك أنه سياسة . . وأنه فاعل سياسى بالدرجة الأولى .

الدولة نفسها تمارس الدين فى السياسة . . فدعوى الرجوع عن القرارات الاشتراكية كانت بفتاوى شرعية .

□ **والبعض أفتى بأن قوانين الإصلاح الزراعى كانت حراما . . وسبق أن أفتوا بأن الصلح مع إسرائيل حلال .**

ـ المشكلة أنك لا تستطيع أن تكون انتقائيا . . إذا أردت أن تسير فى طريق ، فعليك أن تقطعه حتى النهاية . . لا تستطيع أن تقول إنك هنا علمانى . . وهنا إسلامى !

□ **إنها حالة مزمنة جربناها فى كل العصور . . حالة الوقوف على السلالم !**

ـ المجتمعات لابد أن تتسق مع بعضها . . أنت اخترت . . أنا لا أناقش اختيارى . . ولكن امض فى اختيارك حتى النهاية . . ولا ترجع فى منتصف الطريق . .

ومن ثم، لا يجوز تضييع الوقت بأن الدين سياسة أم لا ؟ . . فهو سياسة . . وقد حدث ذلك باختيارنا . . وبكل مواثيقنا التى عملناها . . فدستور ١٩٢٣ نص فى مادة متأخرة دمجت اللغة العربية بالإسلام . وهو النص الذى اعتمده جمال عبد الناصر فى دستور ١٩٥٦ . لكن بعد صفقة الإخوان مع السادات جاء دستور ١٩٧١ فى مادة متقدمة عن الشريعة الإسلامية .

وإذا أخذنا هذا المنطق بالقول بأن واقع الدين سياسة ، وإذا كنت تقول بأن هدف المجتمعات هو الاستقرار والترقى والتقدم وصيانة الأمن ، وأن الدين كفل هذا مباشرة فى عصور معينة ، نقول إنه جاءت عصور أخرى فى الاجتهاد الإنسانى أضافت إلى تعاليم الدين الكثير من الثراء . . لم يحدث هذا عندنا فقط ، وإنما حدث فى العالم كله . ونحن شأننا كغيرنا سرنا فى هذا التطور . . الدين موجود ركيزة . . لكن التجربة الإنسانية أضافت وبنت حوله الكثير .

□ لكن الناس فى كثير من الأحيان يتجاهلون هذه الإضافة . . ويعيدون فى عصر لاحق قوانين الحياة فى عصر سابق . . مستندين فى ذلك على الدين . . وكأن الدين هو إصرار على الماضى فقط .

ـ الدين مرجعية . . وإنما هذه المرجعية لا تحتاج لها إلا عندما تتأزم الأمور . . فترجع وتقول : إنك تريد تفسيرا . . إن المرجعية هنا مثل القانون لا تحتاج إلى استحضار نصوصه والاستشهاد بها حرفا إلا إذا وقعت فى مشكلة . . مع أنه فى كل الأحوال سائد وموجود ومستقر .

أنا أستغرب من إثارة قضية الأصالة والمعاصرة . . ليس هناك شىء اسمه أصالة ، ولا آخر اسمه المعاصرة . . فإذن أنا إنسان حى . . فإن الموروث فاعل ، والمكتسب أيضًا فاعل ، وكلاهما يتسق فى داخلى .

لكن . . يأتى التصادم عندما يمر المجتمع بأزمة وينقسم على نفسه . . ساعتها يتذكر المرجعية . . ويعود إلى النصوص . . ويقترب جدا من المنابع والأصول . . وبصورة حرفية ضيقة . . لأنه فى خلال تجربته الإنسانية كانت هذه النصوص مسكونة فى أعماقه ، وتحيطه من كل جانب ويستلهم منها الكثير !

□ **هذا إذن سر عودة الإسلام السياسى ؟**

ـ أنت اليوم فى أزمة . . والإسلام سياسة . . والناس تريد تفسيرا للأزمة . . لأنها فى شك وحيرة . . إذن تعود إلى النصوص لتنقذ نفسها من الضياع . . وهنا نسأل عن سبب هذا الضياع .

إن أول أسباب الضياع أنك أنهيت هوية مجتمعك . . أو زرعت التناقض فى هذه الهوية . . لم تستطع أن توفق بين الوجوه المختلفة للهوية . . وضعت الإسلام فى تعارض مع العروبة . . مع أنه لاتعارض . . فمصالح ماليزيا الإسلامية ليست أقرب إلينا من مصالح أى دولة عربية . . إن هناك داخل الكيان الإسلامى الكبير جزيرة عربية ، ليست منعزلة وإنما لها خصوصية . . خصوصية الجغرافيا والتاريخ والاتصال والعمل المشترك . . فإذا خلقت شكا فى هذا ، وجدت الضياع أمامك .

أيضًا نحن أخطأنا فى شأن مشروعات التنمية . . التنمية فى العالم الثالث ـ وحتى فى العالم الأول ـ الدولة تقوم فيها بدور رئيسى . . وهو ماتنصلنا منه . ومن ثم اقتربنا أكثر من الضياع .

ومنذ سنوات طويلة ونحن نواجه التيارات الجديدة ـ الوطنية والتقدمية ـ التى ظهرت فى الخمسينيات والستينيات بالدين . . قلنا إنها معادية للإسلام .

أنا لا أقول ذلك اليوم للعودة إلى الأمس . . أبدا . . فكل جيل من واجبه أن يراجع ما كان ، وأن يعيد امتحان المقولات الأساسية المتعلقة بوجوده . وأن يعيد تفسيرها . . لكن لا أعرف سابقة فى التاريخ لعدول بالكامل عما كان وإدانة بالكامل له . . كما جرى لنا . . وكنا فى ذلك ـ للأسف الشديد ـ أداة مفعول به أكثر منا فاعلاً . . وقد حدث اختراق لنا . . والاختراق هو الظاهرة الطبيعية للمحاولات المستمرة لفرض السيطرة الأجنبية علينا .

أنا أوافق أن نقف أمام الأمس ونناقشه . . ونحدد أخطاءه . . ولكن محاولة نفيه كما حدث لا أوافق عليه . . وهذا سر الأزمة التى وصلت إلى حد العنف . . وقبل أن نخرج وندين كل ما نراه حولنا من مظاهر عنف لابد أن نتساءل عما جنته يدانا . . إن بعض الشباب الذى يستخدم العنف تدرب فى أفغانستان ، وهؤلاء دعتهم جهات ـ

نحن والنظام فى ذلك الوقت كان يعلمها ـ إلى الجهاد فى سبيل الله ، وتم تدريبهم وتسليحهم وإرسالهم إلى أفغانستان . . ولسنوات طويلة تم تلقينهم مثلاً معينا ، ومن أجل هذا المثل حملوا السلاح فى ظروف ملتبسة .

أى واحد من هؤلاء كان يستطيع أن يعرف أن الذى يدربه هو جهاز المخابرات الأمريكية ، لكنه تغاضى عن ذلك فى سبيل الإسلام . . كان هناك ١٥ ـ ٢٠ ألف شاب فى العالم العربى تعرضوا إلى هذه التجربة وعاشوها . . هل هؤلاء مجرمون أم ضحايا ؟ . . أنا مستعد أن أقول إنهم ضحايا .

□ **لقد استخدموهم ثم صرخوا منهم بعد ذلك .**

ـ وأيضًا مجموعات الشباب التى خرجت ووجدت أنه ليس هناك يقين ، فإذا بها ترجع إلى النص الأصلى تطلب تفسيرًا . . ومن ثم تعيد امتحان هذا النص فى حياتها الآن . . لقد قلنا إن كل ما كان قبل الثورة باطل . . وكل ما كان فى وقت جمال عبد الناصر باطل . . وكذلك ما كان فى وقت أنور السادات . . طيب ، ولكن ألا تدرك أن معنى هذا أن كل الأجيال الموجودة لابد أن تبحث عن هوية أخرى لنفسها ؟

كل مجتمع لابد أن تكون عنده هوية . . وفكرة مركزية سواء أسميتها أيديولوجيا أم أى شىء آخر . . إنما دون هوية ، ودون فكرة مركزية محركة ، يصعب جدا على المجتمعات أن تندفع إلى الأمام . . أو حتى تتحرك .

فإذا قلت لى : إننى أخذت منك هويتك وفكرتك المركزية وكل رؤاك للعالم . . فماذا أفعل سوى العودة المتزمتة إلى النص ؟

وعندما ينقلب العدو إلى صديق . . والعكس . . فلماذا لا تختلط الأمور ؟

فى واقع الأمر نحن أمام مشكلة أمان مجتمع أكبر منها مجرد مشكلة تأمين بالقوة . . ليس فقط بالنسبة للشباب . . وإنما بالنسبة لنا جميعا .

□□

الكاتب الذى لا يعرف قشعريرة الصدام مع العالم يتحول إلى قلم « فلوماستر » ملون . . أليف . . استؤصلت منه غدة الرفض والقنص . . وبهذا المعنى شعرت وأنا

أواصل الحوار مع هيكل أنه لا يخشى أن يصل إلى مناطق الخطر ومستودعات البنزين والمتاعب سريعة الاشتعال . . . ومنها الآن مستودع قنابل الإسلام السياسى الذى اقتحمه هيكل . . وفى قلبه أضاف :

ـ فى واقع الأمر نحن أمام مشكلة « أمان » مجتمع . . وهى مشكلة أكبر من مجرد «تأمين » بالقوة .

ثم . . توقف لحظة وكأنه يستدعى صورة ما . . وأضاف :

ـ فى ثورة ١٩١٩ خلعت هدى شعراوى غطاء الرأس ، وحررت المرأة . . وجاءت ثورة ٢٣ يوليو لتمنح المرأة حقوق التصويت والتعليم والعمل . . لكن . . فى أواخر السبعينيات بدأت مظاهر الارتداد . . وعاد غطاء الرأس . . ولا أقول الحجاب . . إن هذا الغطاء راية احتجاج على عدم فهم ما يحدث . . راية يقول أصحابها : نحن نستسلم ونرفع الراية البيضاء . . نحن لا نعرف شيئًا مما يجرى حولنا ، لذلك فإننا نستر ونحمى رءوسنا .

□ إنها حماية مؤقتة وعاجزة للعقول الحائرة .

ـ إنها مظاهر وأعراض مشكلة . . ونحن كمجتمع لم نتفق على ماهية هذه المشكلة . . نحن نرى جزءًا واحدًا منها فقط هو الجزء المهدد للأمن . . ونتصور أنه كل المشكلة . . وهذا ليس صحيحًا . . والصحيح أننا نواجه مشكلة لا نعرفها .

□ كيف لا نعرف المشكلة وأصوات الرصاص والضحايا أصبحت عالية الآن ؟

ـ اسمع . . المشكلة ضاربة فى تاريخنا الحديث . . فالحركة الدينية الراغبة فى الفعل المباشر ، أو فى الوصول مباشرة إلى السلطة ، بدأت بصدام الإخوان مع النظام الليبرالى الذى كان الوفد يمثله فى تلك الفترة . . لقد اصطدم حسن البنا ومصطفى النحاس . . وتصاعد الصدام فى سنة ١٩٤٨ ، سنة حرب فلسطين ، حيث استغل الإخوان ما حدث من اضطراب وانهيار . . فى ذلك الوقت كنت صحفيا شابا . . وأتذكر أن كل دور السينما كان بها قنبلة . . وأتذكر الاغتيالات التى لم تتوقف . . أحمد ماهر . . النقراشى . . الخازندار . سليم زكى . . وغيرهم . . لم يكن يمر شهر إلا وتقع حادثة مدوية . . ودخل النظام فى مواجهة . . ونجح النظام فى المواجهة رغم أنه كان ضعيفًا .

□ كيف ؟

ـ لأنه كانت هناك بدائـل أخرى مطروحة على الساحة . . الاشتراكية . . الديمقراطية . . والفكرة الدينية .

□ ومعظم هذه البدائل اختفت الآن .

ـ لقد شككنا فيها ووصمناها بما لم يكن فيها .

□ لكن المشوار بدأ بعد ثورة يوليو .

ـ بعد الثورة كانت فترة الخلخلة الأولى للإخوان . . إن القمع لم يكن سبب القضاء على الإخوان . . وإنما الذى أنهى الموضوع تحد أكبر فى شئون الوطن كافة ... مشروع قومى استوعب الطموح والآمال . . فى سنة ١٩٦٥ جاءت أزمة جديدة فجرها سيد قطب . . وأنا مستعد أن أحترم رؤية سيد قطب ، لكنه فى النهاية.هو رد فعل وليس فاعلا ، فقد تأثر بأفكار أبى الأعلى المودودى القادمة من باكستان . . وأنصار سيد قطب لايخفون ذلك . . وهى أفكار أعتقد أنها غير قابلة لأن تعيش فى مصر . . فهى أفكار مناسبة لأقلية مسلمة تعيش فى محيط من الأغلبية الهندوكية . . ومن ثم هى تعبير عن احتجاج ، انسلاخى ، كامل من جو يمتلئ بالتعصب والفتنة . . وهو جو لا وجود له فى العالم العربى . . فكل شىء هنا على نحو ما ، أكثر اتساقا وإن عنفت الصراعات الفكرية والسياسية والاجتماعية .

□ إذن لماذا وجدت هذه الأفكار من يتحمس لها ؟

ـ عندما تنظر إلى سنة ١٩٦٥ ، تجد أنها فى غاية الأهمية بالنسبة لمصر . . فى تلك السنة انتهت خطة التنمية الأولى ، والمرحلة الأولى فى السد العالى ، وأنفقنا استثمارات قدرها ٣٠٠ ، ٤٠٠ مليون جنيه ـ وهو مبلغ ضخم فى ذلك الوقت ـ ولم يشعر الناس بعائد بسبب طبيعة هذه النوعية من المشروعات والاستثمارات ، فبدأ التململ . ثم ازداد التململ بسبب أزمة حرب اليمن ، وبسبب الأعراض الجانبية المصاحبة لبقاء نظام فى السلطة لمدة طويلة . . وفى هذا المناخ ظهرت حركة محدودة ، تمت مواجهتها ، بصرف النظر عن كيفية ذلك .

□ لكن هذه المواجهة لم تمنع تفريخ أجيال جديدة شابة اعتبرت سيد قطب زعيمها، رغم أنه لم يعد على قيد الحياة .

ـ إن ذلك حدث فيما بعد حينما وجدت الأفكار الانسلاخية مناخا من الاغتراب الفكرى والاقتصادى بدأ يستشرى فى أجواء الانفتاح وما صاحبها من مظاهر . . فحادثة الفنية العسكرية ـ التى أعتقد أنها حركة احتجاجية ـ يمكن أن نقول إن بعض أفرادها كانوا من المحتجين على ما حدث فى ١٩٦٥ .

□ كان مثيرا للدهشة أن تحدث واقعة الفنية العسكرية بعد ٦ أشهر فقط من حرب أكتوبر ، وهى الحرب التى أعادت لنا الكثير مما فقدناه فى حرب يونيو .

ـ ابتداء من بعد حرب أكتوبر كانت التوجهات والاختيارات ـ والتى لا أناقش صحتها ـ من شأنها أن تحدث تناقضا بين حاضر المجتمع ، وماضيه . . ولم يكن تناقضا بالدرس والتحليل وإعادة الفحص ، وإنما كان تناقضا بالحملات والتشهير . . كان من الممكن أن نقول إن مصر ـ الثورة ـ أنجزت مرحلتها ونحن نريد أن نستبدلها بشىء آخر . . لكننا قلنا إن الأمس كان إجراميا ، مع أن جزءا من الذين قالوا ذلك ، كانوا شركاء فى الماضى. لقد زرعوا فى الناس عقدة الذنب وحاسبوهم على مالم يرتكبوه. وبعد هذه الاختيارات أصبحنا مجتمعا بتروليا دون أن يكون لدينا بترول . . مستوى الأسعار والتطلعات ومستوى الفوارق بين الطبقات . ولاحظ أن مجتمع البترول هو المجتمع الذى اختار قبل غيره فى العصر الحديث أن يظهر على الناس بعباءة الإسلام .

هذه الحيرة ، وهذا التناقض هو الذى أخرج إلينا أجيال الاحتجاج . . وقد رأيت بعضهم فى السجن . . فى سنة ١٩٨١ . . كان كل الموجودين بقايا مما كان ذات يوم ، ماعدا شباب التيار الدينى الجديد ، الذى بدا رافضا لكل ما هو قائم . . ويكاد يكون رافضا للحياة .

مثال ذلك . . شاب كان فى السنة النهائية بكلية الهندسة ، عندما حاولت أن أكلمه فى السياسة رفض ، وقال : إنها شئون دنيا . . وعرفت أنه كان فى خلوة بالجامع عند القبض عليه لمدة ٤٠ يوما . . وكان عمره ٢١ سنة . . ومعنى ذلك أنه يفضل الانسحاب من الحياة ويرفضها .

وهؤلاء الشبان ـ عندما تراهم وتسمعهم ـ تقول على الفور إنهم ليسوا منتمين لمحن صدام التيار الدينى والسلطة فى ١٩٤٨ ، و١٩٥٤ ، و١٩٦٥ ، ولا لشرارات حوادث العنف التى وقعت فى ١٩٧٤ و ١٩٧٧ . . لكنهم وافد جديد على الساحة ، وهو وافد قادم من باب المجتمع وليس من باب الدين .

الدين بالنسبة لهؤلاء هو عودة إلى الاحتماء بالنص . . فالنص هو القانون الوحيد الذى يمكن أن يكون معه . وهو مفهوم له ، وفى غياب الأشياء الأخرى ، لايجد سواه . . كما أنه يعطيه ولاء غير محدود ، وتصرفا جريئا ، مثل إلقاء قنبلة على أتوبيس سياحى ، دون أن يدرى ما هى السياحة ، وماذا تفعل ؟

□ وربما لا يدرى ما هى السياسة أيضا ؟

ـ نعود مرة أخرى ونؤكد أن كل دين سياسة ، فالدين فى واقع الأمر محاولة لتفسير الحياة منذ نشأتها إلى نهايتها ، ولك أن تختار . . وفى الإسلام الله موجود معك ، وليس مفارقا لك ، وهو يراقب تصرفاتك . . ولكن آفة الدولة الإسلامية ، كانت الضعف السياسى ، وتصارع الولاة . . وهذا حدث فى كل دين . . ولكن فى المجتمعات الأخرى ـ سواء كان هذا صحيحا أم خطأ ـ قوانين السياسة منفصلة عن تعاليم الدين . . المجتمع الأمريكى مثلا لاينفق على مدرسة دينية . . ولكن . . فى بعض الولايات نجد من يمنع تدريس نظرية النشأة والتطور لداروين .

وكما فى السياسة ، فى الدين ، كل قضية إما أن تجد من يتكلم عنها ، أو من يستغلها ، ثم بعد ذلك لابد أن ترى كيف حدث ما حدث وما هى أسبابه؟ ولماذا لجأنا إلى الكهنة ؟ ولماذا رجعنا مرة أخرى إلى قرب النصوص الحرفية من غير الاستعانة باجتهادنا الإنسانى الذى نحن مكلفون به ؟

إذا فعلنا ذلك ، فأنا أعتقد أننا سنكتشف أن المشكلة ليست كبيرة إلى هذه الدرجة ، وفى واقع الأمر فهى ليست كبيرة .

فى مصر مشكلة وأزمة . . نعم . . ولكنها ليست أزمة الدين أو أزمة التيار الدينى . . هنا مجتمع يحتج على أشياء يراها ولا تعجبه ولايوافق عليها ، وليست لديه وسائل تغييرها . . لذلك يلجأ إلى الابتعاد ويندفع إلى شىء آخر . . وإذا جئنا إلى هؤلاء المحتجين ، فالحقيقة أنهم ليست لهم هذه الفاعلية التى ننسبها إليهم .

وإذا جئنا إلى موضوع السياحة بالذات . . أنا أعتقد أنها خطأ من جانب الدولة . . لأن ما جرى من حوادث كان محصورا ولايساوى كثيرا . . هم الذين يكبرون هذه الأشياء . . فلو حصرنا كل حوادث ما نسميه الإرهاب سنكتشف أنها جميعا محدودة، وتحدث فى مجتمعات طبيعية ، عادية ، لأن فى كل المجتمعات هناك قلة من الناس يصل بها الاحتجاج اليائس إلى القيام بأى عمل من هذا القبيل .

فى أمريكا أحد المواطنين اغتال كيندى رئيس الجمهورية . . هل قال أحد إن أمريكا قد جنت ، وإن كل من فيها مجانين ؟ . . دع قصة اغتيال الرئيس السادات فهذه لها ملابساتها وظروفها ، لكن دعنا نتحدث عما نراه اليوم . . الذى حدث أن كاتبا قد اغتيل . . وجبهة فى الاقتصاد الوطنى قد ضُربت ، أو يبدو ذلك . . ومع هذا فحتى هذه الهجمات محدودة جدا .

□ هل هذا معقول ؟

ـ أنا أفرق بين ما هو موجود اليوم وما يمكن أن يوجد غدًا ، لأن هذه الحوادث المحدودة التى نراها اليوم هى عملية تدريب وبروفات عما يمكن أن يحدث غدًا . . لذلك أنا خائف من الغد . أما ما يحدث اليوم فلست قلقا منه إلى هذه الدرجة .

الكارثة التى أحدثت هذا الأثر الاقتصادى أنك ضخمت الحوادث وجعلتها خارج حدودها . . النتائج التى حدثت جاءت بسبب المبالغة . . وأنت لم تبالغ لأنك مجنون . . وإنما لأن حساباتك تنحصر فى أنك راغب فى عزل هذه الفكرة عن المجتمع، وعزل هذا التيار عن الجماهير . . كل هذا يحدث اليوم وفى الذهن ما سيحدث فى الغد . . الموجود اليوم لايقلق . . صبى صغير ألقى بورقة فى معبد الكرنك يحذر فيها السياح من الإقتراب . . أنت كبرت هذه الحادثة وقامت الوكالات بنقلها عنك ، والناس فى الخارج تعرف أنك أفضل حكم على شئونك . . وعندما وجدوا أننا نكبر ذلك ، كان من الطبيعى أن يسايرونا .

□ الخوف إذن من الغد ؟

ـ نعم لأن اللعبة بين الدولة والجماعات لعبة على المستقبل . . الدولة لاتخاف منهم الآن ، وإنما تريد أن تعزلهم عن الناس لأنها تخشاهم غدا . . وهم من جانبهم لايتبينون

ماذا يفعلون . . هم ساخطون وغاضبون وناقمون ، والناس لاتسايرهم فى العنف وإنما تسايرهم فى جزء كبير من الانكسار .

إن الشعور العام للناس هو ضيق مما يحيون فيه وإحساس بالانكسار . . والبعض يتصور أن ما يدور فى قمة المجتمع غير معروف فى القاع . . فى أكبر ٧ فنادق فى القاهرة، نجدهم يحصلون على دخل من ٢٣ ـ ٢٥ مليون جنيه شهريا من تكاليف الزفاف والحفلات الخاصة . وهذه الأرقام من دراسة لجامعة أجنبية عن أنماط الحياة الجديدة فى مصر . وهى تؤكد أنه إذا كنت تتصور أن هذا غير مسموع فى أسفل المجتمع تكون واهما . . فلا يمكن أن ننسى أن مجتمع القمة الكسول ـ حتى فى مباذله ـ لا يستطيع أن يخدم نفسه ، وهو فى حاجة لمن يقدم له الطعام والشراب . . والذى يفعل ذلك ينقل ما يراه ويقول . . وما يقوله يزيد من حالة الانكسار والتباين والتمايز والتفاوت . . وهذا فى اعتقادى نوع من الإرهاب .

□ تقصد أن ظاهرة الإرهاب لها أسباب اجتماعية ؟

ـ أسباب اجتماعية حقيقية . . والناس المنضمون إليها ليس ما يفعلونه هو خيارهم الأول ولا الأخير . . الخطر فى الغد . . عندما تستفحل هذه الظواهر دونما علاج . . ما فعلته الحكومة هو أنها عزلت هذا التيار . . ولكنها ركزت جهدها فى الاكتفاء بالعنف دون غطاء سياسى . . وأصابتهم بضرر اجتماعى ، فإذا بنا ندخل فى حلقة مفرغة .

□ كل ذلك يؤكد أننا لم نعرف المشكلة بدقة .

ـ نحن أيضا لم ندرسها ولم نحللها . ولو قمنا بذلك ، سوف نكتشف أن الجسم كله ليس مريضا ، وليست الظاهرة بالدرجة الكبيرة التى نتصورها . . سنجد أن هناك مرضا محددا وفى مكان ما ، وتستطيع من هنا أن تبدأ العلاج . . نحن أمام خطر حقيقى ولكن علينا أن نحدد هذا الخطر بدقة لنحدد نوع المواجهة . . ومن هنا ننطلق .

بدون أن نفعل ذلك ، نكون كمن يتخبط فى الظلام . وأنا أحد الذين يعتقدون أن الحركات المتوسلة بالإسلام هى من أضعف ما يمكن فى هذه اللحظة . . فهى ليست على مستوى ما كانت عليه فى ١٩٤٨ ، و ١٩٥٤ بالتأكيد . وفى اعتقادى أن الموجود حاليا هو توسل بالدين إلى شىء آخر غير محدد فى الساحة الاجتماعية .

وعند تشخيص الظاهرة ، نقول : إن هذه الحركة بلا قيادة ، وتيارها العام ليس دينا بالدرجة الأولى ، لكنها بالرغم من ذلك تعبير عن حالة عامة فى المجتمع .

وأول شىء يجب فعله هو البحث عن حجم الجزء المنظم فى هذه الحالة . . ولابد أن نسلم أن هناك بؤرا قابلة أو قادرة أن تأخذ قيادة تيار بهذا التوجه .

□ كيف يكون العلاج ؟

ـ لابد أن نتفق أولا على أن ما يحدث ليس علاجا . . العلاج يبدأ بأن يكون لك هوية وتستقر عليها ، وتعلم أن الهوية ليست موضة أو تقليعة . . ولابد أن تعرف من أنت ؟ وماذا تفعل ؟ وما هو هدفك ؟ . والمشكلة أنه بسبب الأوضاع والتطورات والضرورات السياسية أصبحت تخلط بين ما هو هوية وما هو دور ، التبست كل المسائل واختلطت . . هل أنت عربى أم فرعونى ؟اختر . . اجعل المجتمع يختار . . وقل له : أين سيذهب بالفرعونية . . أما إذا كنت جزءا من العالم العربى ، فلابد أن تستقر هذه المسألة فى ذهنك . . والهوية فى النهاية لابد أن تكون متسقة مع التاريخ والعصر والمستقبل والواقع .

□ نحن عرب .

أى نوع من العرب ؟ . . نحن مجتمع قام فى الغيط والترعة والمصنع والكُتّاب ، وصنع أشياء وليس عالة على أحد ، وما فعله أثر فيمن حوله وخلق دائرة أبعد بكثير جدا من الحدود السياسية ، لكنه الآن ليس واضحا ولايفرق بين الوسائل والغايات .

□ كيف نكون أكثر تحديدا ووضوحا ؟

ـ قبل أى شىء آخر عليك أن تعيد ترتيب مخك ، ثم تعيد ترتيب خطابك العام للناس . . لابد أن تجعل الناس مجتمعين على هدف ، وأن يكون هذا الهدف حقيقة . . لا أتحدث عن مشاريع المجارى ولا المدارس . . وإنما أتحدث عن تصور . إلى أين نذهب ؟ وماذا نفعل إذا استطعنا الوصول ؟

□ لكن الاعتداء على المجتمع لايستطيع الانتظار حتى نحدد ذلك .

ـ لا أحد يقول أن نترك المجتمع يُعتدى عليه فى انتظار تبلور هويته . . قدرة المجتمع تختلف عن قدرة الفرد . . بمعنى أن المجتمع يستطيع أن ينهض بمسئوليات

متعددة فى وقت واحد ، لأن المجتمع قادر بحكم اتساع حدوده والفرد محصور . . اعمل سياسة أمنية مستنيرة ، لكن هذه السياسة لابد أن يكون عندها تصور عن المكان الذى تضرب فيه ، وفى الوقت نفسه لابد أن يكون هناك من يتولى عملية تحديد الهوية .

□ هل الهوية التى تقصدها مستوحاة من العهد الناصرى ؟

ـ نحن نقول إن الحياة بالنسبة لأى مجتمع مستمرة ، لكن كل جيل يعيد تفسير مهامه على ضوء المتغيرات التى حدثت فى العالم ، والمشروع القومى يجب أن يدخل هذه المتغيرات فى حسبانه . . فلا أستطيع أن أقول اليوم . . قومية عربية أو وحدة عربية . . لأنى لو قلت ذلك أكون حالما . . لكن بالرغم من ذلك القومية العربية موجودة ، والأسباب الداعية إليها مستمرة ولكن علىّ أن أعيد تفسيرها على ضوء احتياجات العصر .

لانقول اليوم إنه لتحديد الهوية لابد من وحدة عربية . . لأن الصورة فى العالم العربى أصبحت مختلفة ، ولكن لابد أن نجد توصيفا للدور الإقليمى . . الهدف هو نفس الهدف لكنك ستعيد ترجمته بما يلائم الظروف الواقعة .

وعندما نتكلم عن مشروع التنمية . . أكاد أن أزعم أن هناك بعض الإشارات الصحيحة والإيجابية فى المجتمع المصرى فى هذه القضية ، لكن أقول فى نفس الوقت إن أحدا لايجمعها مع بعضها كمحاولة لتقديم صورة واضحة .

لايتعب الناس أكثر من الغموض وأنصاف الحلول والعجز عن التوصيف . . الناس تتقبل القضية التى توضع أمامها كاملة . . وقابلة للمناقشة . . أو قابلة للإقناع بقدر ما هى قابلة للمناقشة .

قضية التنمية . . قل لى ما هو منطقك بالنسبة للتنمية ؟ . . هناك أشياء تتم لابأس بها وأشياء أخرى غير مفهومة ، وهناك مصالح تتحرك ، لكن قل لى ماذا تريد أن تفعل فى التنمية ؟ . . هناك تخبط ما بين التمسك بالقطاع العام وبيعه . . العالم كله الآن يتحدث عن التنسيق والتكامل بين دور ضرورى للدولة ودور ممكن وضرورى للقطاع الخاص . . الصين منذ ٤ سنوات تنمو بمعدل ١٢٪ ، ولم ترتكب الحماقة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى . . كارثة الاتحاد السوفيتى الكبرى حدثت عندما عجز عن الدخول فى الثورة الصناعية الثالثة . . لقد كنا على خلاف مع التجربة السوفيتية فى كل شىء . .

هم بدءوا بالصناعات الثقيلة ونحن بدأنا بالصناعات الاستهلاكية . . وعندما تحولنا إلى الصناعات الثقيلة لم يحدث نقص فى السلع الاستهلاكية كما حدث فى الاتحاد السوفيتى ، حيث كانت أرفف المحلات خالية باستمرار . . ولم يحدث إطلاقا أن ألغيت الملكية الفردية فى مصر ، حتى فى عز الحديث عن الاشتراكية كان نصف الاقتصاد ـ الزراعة ـ قطاعا خاصا ، ومعظم التجارة الداخلية ، ونصف الصناعة تقريبا .

□ لكن المتغيرات التى تريد أن نضعها فى الحسبان ونحن نعيد صياغة مشروع قومى جديد يصعب حصرها فى ظل ما يسمى بالنظام العالمى الجديد !

ـ ليس هنـاك نظام عالمى جديد ، وإنما فوضى عالمية ، وقد كنت أنا ـ وفى وقت مبكر ـ أول من قال بذلك . . لكن لا أحد ساعتها أراد أن يسمع أو ينصت . لكن هذه الفوضى . . لايمكن أن تمنعنا من الاجتهاد ولو بعض الوقت لتحديد رؤانا للهوية والتنمية ولعلاقتنا بالآخرين وبالعالم . . هناك مجالات كثيرة نحن وأشباهنا فى العالم الثالث نستطيع أن نتحرك فيها ونقاوم . . لكن الذى حدث هو أننا جلسنا مستسلمين لنوع من الفوضى والدول من حولنا تنهار ، ونظم أخرى تسقط ، وقدرة المجتمعات على التعايش مع بعضها تقع ، وهذا موجود فى كل مكان حولنا .

نريد سياسات متكاملة ، من ضمنها مسئوليات المجتمع . . ومن ضمن هذه المسئوليات أن أجعل الحياة مقبولة بالنسبة لمن يسكن على أرض هذا الوطن !

□ متى يشعر الناس باللامبالاة ؟

ـ عندما يشعر أغلبهم ألا دخل له فيما يجرى حوله ، أو يشعر بأن أمرا يثقل على ضميره ولايستطيع شيئا . هذا يحدث فى المجتمع . لكن هذه ليست لامبالاة غير مسئولة وإنما هى أعراض أشياء متناثرة . . أشياء كثيرة لا أستطيع عملها ولا إبداء الرأى فيها ، ولذلك تسود حالة الاغتراب .

□ أشياء مثل إيه ؟

ـ هل يعقل أن يكون برنامجنا الاقتصادى مستوردا من صندوق النقد الدولى ؟ . . كان علينا أن نسأل : هل هو مناسب أم لا ؟ ومع ذلك ، أنا أقبل أن يكون الصندوق أمامى ، ولكن لايكون كل برنامجى . هذا مع العلم أننى لا أرى سببا فى أخذ برنامج

الصندوق ببساطة ، لأننا بين دول العالم الثالث الأحسن حظا فى التدفقات المالية التى جاءت إلينا . . منذ سنة ١٩٨٠ وحتى الآن ، جاءت إلينا تدفقات مالية تصل إلى ١٤٢ مليار دولار ، وهذا المبلغ لم يتح لأى بلد فى العالم الثالث ، وكان لابد أن يكون بالنسبة لنا قاعدة انطلاق ، ولدينا الوسائل التى تسمح بذلك .

هذا القطاع العام الذى لدينا ليس خاسرا . . هو يكلف بأعمال لاتتيح له الربح أحيانا . . لكن فى واقع الأمر اقتصادياته معقولة وقدراته هائلة . . لنقل إن ١٠٪ غير جيد لكن الباقى شىء جاد فى الحقيقة .

والدليل على ذلك أن أكبر بيوت الأموال فى الاستثمار المالى ، وليس الصناعى تأتى إلى مصر الآن لتقتنص فرصة الانقضاض عليه . . إنهم يعتقدون بوجود فرصة هائلة للشراء . . لن يمكثوا طويلا . . سيدخلون إلى سوق إمكانياتها ضعيفة ليشتروا ، وعند ارتفاع أثمان الأصول بعد فترة سيقومون بالبيع ، ثم يصفون مكاتبهم ويذهبون . إنه ليس استثمارا ، وإنما وجد أمامه فجأة فرصة سيستغلها ويرحل بعد ذلك .

□□

يتوقف هيكل ليسحب نفسا من سيجاره . . ثم راح يعبث فى الريموت كنترول الذى يتحكم به فى جهاز ستريو الموسيقى الذى راح يصدح بموسيقى موتسارت الذى يحرص هيكل على أن يحضر مهرجانه السنوى فى سالزبورج فى كل صيف . . وكانت فرصة لأن أتأمله قليلا .

إن هيكل يكتب بانتظام منذ سنة ١٩٤٨ ، وهى السنة التى ولدت فيها ، والمقصود أن عمره مع الكتابة مثل عمرى فى الحياة . . حوالى ٤٥ سنة . . والكتابة عنده مثل جبل الجليد . . الجزء الظاهر منها كتب ومقالات . . أما الجزء الغائر ، فهو مذكراته اليومية التى يسجل فيها تفاصيل رحلاته فى غابات الصحافة والسياسة . . ولأنه عاش الأحداث الخطيرة ، وشارك فيها أحيانا ، ولأنه عرف عن قرب معظم العمالقة الذين سمعنا عنهم من بعد ، فإنه يقول : إن يومياته من أهم السجلات الموجودة الآن .

وأتصور أن دفاتر مذكراته ستكون بمثابة الذاكرة القوية التى تسعفه عندما يقرر أن يكتب سيرة حياته . . عندما يقرر أن يكشف الستائر عن نفسه بنفسه . . ويرسم

وجهه بيده . . ويصل إلى الناس بغير وسطاء ولا مخترعين . . فهو يملك صوتا ولا حاجة به لكل أشرطة التسجيل .

لكن . . الأهم أن جزءا كبيرا من يومياته الخاصة ، هو شهادة حية على أحداث تاريخية ، ويجب أن يستفيد منها المؤرخون . .

□ فكيف يمكن أن تصل إليهم فى الوقت المناسب . . وكيف يمكن الحفاظ عليها؟

فاجئته بالسؤال . . فقال :

ـ أتمنى أن أعطى كل ما أملك من أوراق إلى أى جهة تضيف هذه الأوراق إلى تاريخ مصر . . إننى أسجل ما بين ١٠ ـ ١٠٠ ورقة يوميا ، وبعض ما سجلته شديد الأهمية ، مثل مناقشتى مع وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر بعد حرب أكتوبر ، وهى فى ٦١ صفحة . . إن هذه الأوراق تجربة فى تاريخ مصر . . فأنا لدىّ الكثير . . وأعرف الكثير . . وكنت أتمنى أن أعطيها إلى جامعة مصرية لتستفيد من الذى كتبته أو الذى رأيته أو الذى أتيح لى أن أطّلع عليه . . لكن . . ذلك لابد أن يسبقه قانون يحمى مثل هذه الأوراق ، ويحترم كلام أصحابها ، ويلزم بعدم الكشف عنها إلا فى الوقت المحدد الذى يوصون به .

□ وهذا يحدث فى معظم الجامعات الشهيرة فى العالم .

ـ نعم . . وعلى سبيل المثال ، قدم اللورد كليرن أوراقه اليومية التى كتبها عن مصر فى الفترة من ١٩٣٥ إلى ١٩٤٥ ، وهى فترة حاسمة فى تاريخ مصر إلى كلية «سانت أنتونى » بجامعة « أكسفورد » . . ووجدت هذه الأوراق حماية قانونية . . وعندما أرادوا الاستفادة منها ، جاءوا بدبلوماسى خبير ليستخرج من بين مليونى كلمة كتبها اللورد كليرن حوالى ١٥٠ ألف كلمة ، استفاد منها من أراد ، دون المساس بأى حقوق شخصية أو قانونية .

□ هل يمكن أن تقدم أوراقك إلى إحدى هذه الجامعات الأجنبية ؟

ـ أبدا .

□ إذن كيف يمكن الاستفادة منها بعد عمر طويل ؟

ـ سأتركها إلى أبنائى مع تحديد المواعيد المناسبة لكشف ما فيها . . وخاصة أننى

أملك إلى جانب أوراقى ، وثائق وشهادات أخرى ، وضعها أصحابها أمانة فى عنقى ، وحددوا مواعيد لنشرها ، يصعب أن أكون موجودا فيها . . وعلى سبيل المثال . . حسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى . . تحدث معى كثيرا ، فى بيتى ، وسجلت شهادته على ٣٢ ساعة ، كانت مجمل أهم ما جرى فى عصر فاروق . . لكنه طلب منى عدم إذاعتها إلا بعد وفاته ووفاة زوجته بـ ٢٠ سنة . . وأنا لن أكون موجودا ساعتها . . وأيضا محمود فوزى . . إنه شخصية لا أحد يعرف عنها بما فيه الكفاية . . لكن فى محاولة للاستفادة من تجربته سجلت معه بصراحة ٤٠ ساعة . . أنا مؤتمن عليها . . ولابد أن تصل إلى الناس بأمانة . . وهذا ما حدث أيضا مع سفيرنا فى لندن قبل قيام الثورة مباشرة ، عبد الفتاح عمرو . . إن وثائق هؤلاء وغيرهم ليست ملكى ، وإنما جزء من تاريخ مصر . . وقد أرسلتها إلى الخارج تخوفا عليها فى وقت كان فيه الرئيس السادات يتربص بى . . إن كل وثائقى وأوراقى فى الخارج ، وعندما احتاج منها شيئا أصوره وأستعمل الصورة .

□ أعرف أنك من المؤمنين بأن الوثائق عندما تتكلم ، فإن كل شىء يجب أن ينصت . . كم وثيقة فى مخزن معلوماتك ؟

ـ ٦٠٠ ـ ٧٠٠ ألف وثيقة أحضرتها إلى « الأهرام » من وثائق الدولة فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل . . وأحضرت لنفسى نسخة منها . . وربع ما أملك من وثائق مصرية !

□ منها وثائق جمال عبد الناصر التى آن الأوان أن نسأل : كيف حصلت على صورة منها ؟

ـ لابـد أن نفرق بين أوراق رئيـس الدولة وأوراق الدولة . . أوراق الدولة موجودة عند جهات الدولة المختلفة . . الخارجية . . المخابرات . . المباحث . . مثلا . . ويمكن أن توجد نسخة منها عند رئيس الدولة . . أما أوراق رئيس الدولة ، فهى التى يكتبها بخط يده . . وأنا كنت « غاوى » أن أجلس بجانب جمال عبد الناصر حتى فى مؤتمرات القمة ، وأجمع الأوراق المتبادلة بينه وبين الملوك والرؤساء ، ولم يكـن يمانع فى ذلك .

□ لكن . . كانت هناك أوراق أخرى لجمال عبد الناصر محفوظة فى سكرتارية المعلومات لم يتح لأحد لمسها إلا بعد وفاته .

ـ لقد نقلوا إلى بيت أنور السادات فى الجيزة الوثائق المتعلقة بوقائع ١٤ مايو وما سبقها ، وهذه هى التى اطلعت عليها عنده وتم تصويرها بكاميرا زميلى فى « الأهرام » محمد يوسف .

وأما أن الأرشيف الذى كان موجودا فى بيت عبد الناصر قد نقله ، فهذا طبيعى لأن أوراق سلفه كان يجب أن تتبعه إلى حيث يعمل ، فإذا أمر بنقلها فهذا حقه . وأنا أعلم يقينا أن هذه الملفات ذهبت إلى قصر عابدين ، وأعلم يقينا أن ما أرسل منها إلى بيت الرئيس السادات كان فقط ما اتصل بتصرفات عدد من المسئولين قبل ١٤ مايو . ولقد حصلت بإذنه على بعضها ونشرته أيامها بالفعل ، كما أن بعضه عرض أثناء نظر قضية مراكز القوى . وأنا لا أزيد فى التفاصيل ، لأن الوقت ليس مناسبا لإثارة مواجع قديمة ، فضلا عن أن هناك ما يجب أن يشغلنا الآن عن العودة إلى أشباح الماضى وحكاياته .

□ ولماذا لا نقول تجارب الماضى ودروسه ؟

ـ عموما أحب أن أضيف أننى لم أكن فى حاجة إلى تصوير وثائق عبد الناصر ، فقد كنت أعرف كل ما أريد أن أعرفه . والغريب أننى حرصت على تسجيل ذلك مبكرا عقب رحيل عبد الناصر مباشرة . وقد سجلته رسميا فى خطاب استقالتى من الوزارة ، وهى استقالة نادرة فى تاريخ مصر الحديث . وهذه الاستقالة لم تنشر فحسب ، وإنما نشر أيضا رد رئيس الجمهورية الجديد عليها .

□ أوراق الأرشيف تؤكد أنك رجوت السادات بقبول استقالتك من وزارة الإرشاد ، أو الإعلام فيما بعد ، فى خطاب بتاريخ السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠ ، ورد السادات عليه بتاريخ الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٧١ . . وكان نص خطابك :

سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة .

الأخ والصديق أنور السادات .

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر فى ثرى مصر الخالدة ، فإنى أتقدم إليك راجيا أن تأذن بإعفائى من العمل فى وزارة الإرشاد القومى .

إن وصولى إلى القرار الذى يدفعنى إلى التقدم بهذا الرجاء إليك ، لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية ـ مع أنه لدى منها أكثر مما يتصور أحد ـ ولكنه يصدر أيضا عن اعتبارات عديدة ، إنسانية وفكرية وعملية أجملها فيما يلى :

١ ـ إن الكل يعلم أننى حاولت طوال عمرى أن أبتعد عن المناصب الرسمية تمسكا بمهنة اعتقدت ومازلت أعتقد أن حياتى فيها .

٢ ـ إننى خرجت عن هذه القاعدة نزولا على أمر كريم منه ، عندما شاء أن يكلفنى بالتعبير الرسمى عنه ، فى فترة من النضال بالغة الحساسية ، وكان هذا من جانبه اختيارا شخصيا . ومن بعده ، فإننى لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره ، كما أننى لا أستطيع أن أبقى على رأس وزارة الإرشاد القومى تعبيرا عن نفسى ، فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده ، وليس أى مكان آخر غيره .

٣ ـ إن جزءا كبيرا من مهمة إعادة تنظيم وزارة الإرشاد القومى قد تم بإنشاء اتحاد الإذاعة والتليفـزيون العربى ، وبالدراسات المعدة للبت فى شأن الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها من مؤسسات الوزارة . ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس، فإنى أتوقع ـ مع بداية سنة ١٩٧١ بمشيئة الله ـ أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة .

٤ ـ إننـى لم أعد أستـطيع بكل ما أحس بــه الآن التوفيق بين وزارة الإرشاد وبين الأهرام، وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور ، لكننى الآن أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلا بالنسبة لى . وإذا كان لى أن أختار ـ والخيرة لله ـ فإننى أوثر أن أبقى فى المكان الذى أسهمت مع آلاف من أبنائه فى تحويله إلى إطلالة مصرية على العصر الحديث . وكان ذلك ، ولكى أكون منصفا للتاريخ ، بتشجيع معنوى كبير منه ، وبإلهام مضىء .

٥ ـ إننى أعتقد إلى جانب ذلك ، أن علىّ مسئوليــة أتحملها أمــام الأجيال ، فلقد اقتربت من فكره وعمله « جمال عبد الناصر » ولابد أن أعيد ترتيب أوراقى وذكرياتى عنه ، لأننا نحن الذين عرفناه عن قرب وشرفنا بالوقوف ، حيث تمكنا من رؤيته وهو يحلم ويناضل ويحقق ـ

لانملك وحدنا قصة حياته ، فهذه القصة ملك لشعبنا ولأمتنا العربية وللإنسانية .

ولعلك تذكر مرة أيها الصديق الكريم ، وكنا معا أخيرا فى فندق هيلتون ـ أثناء أزمة الأردن التى كانت آخر معاركه المنتصرة ـ أننا تحدثنا عن التاريخ وكيف سيروى حكاية هذا العصر ، وتذكر أنه أمامك ، وأمام السيدين حسين الشافعى ، وعلى صبرى ، أشار إلىّ وقال : « إنه هو المسئول عن ذلك .. لقد كان يعرف كل شىء .. وهو يتحدث دائما عن الإحساس بالتاريخ .. والكتابة صناعته » .

ومن جانبى أيها الأخ الكريم ، فإننى أعتبر تلك وصية يسألنى عنها ضميرى ، وسوف يسألنى عنها الضمير العام لأمتى .

وليس معنى ذلك أننى أفكر فى النشر العاجل ، فأنا أول من يقدر أن هناك أشياء لم يحن بعد أوانها ، ولكنى بأمانة المسئولية أمام ذكراه الغالية لا أستطيع أن أترك شيئا للضياع أو النسيان .

إننى أرجوك ملحا ومن كل قلبى ألا تعتبر هذا تخليا منى فى وقت عصيب .

إنك تعلم أن ذلك لايمكن أن يخطر لى ببال ، فأنت الرجل الذى اختاره هو بنفسه نائبا له فى وقت علم فيه أنه معرض لمخاطر مؤامرات خطط لها الذين تصدى طوال عمره لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمته .

وذلك الاختيار وحده يكفى ، ليس بالنسبة لى وحدى ، وإنما بالنسبة لكل الذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بأن يستمر الخط الذى رسمه لأمتنا سواء لمرحلة النصر أو لما بعد النصر بإذن الله .

إننى أناشدك أن تغفر لى ما أستأذنك فيه الآن إذا كان رأيك فيه مخالفا لرأيى ، وأتمنى على الله وعليك أن يكون غفرانك من فهمك لموقفى وظروفى ومشاعرى .

وأريدك أن تعرف فى النهاية أن قلبى معك ، وأن عقلى معك بكل ما أستطيع دفاعا عن مبادئه ، وعن سياسات أجراها نابعة من تلك المبادئ . ولك الدعاء خالصا وصادقا أن يعينك الله على ما تحملت أمانته ، ولك التحية والمحبة .

محمد حسنين هيكل

ورد الرئيس السادات بالخطاب التالى :

عزيزى الأستاذ محمد حسنين هيكل

وزير الإرشاد القومى

تحية الإسلام مباركة طيبة ، وبعد . .

فلقد تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير ، فليس أحب إلىّ فى هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء فى كل صوره وألوانه . من أجل ذلك ، فإنه لايسعنى إلا أن أجيبك إلى طلبك أيها الصديق ، واثقا أن جهدك وقلمك سوف يظلان كما عودت زعيمنا الراحل أن يكونا فى مكانهما من معركتنا المقدسة، شاكرا لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة ، داعيا لك المولى عز وجل أن يوفقك فى مكانك الذى اخترته بإرادتك ، وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة، والله أسأل أن يسددنا جميعا بتوفيقه ، والسلام عليكم ورحمة الله .

أنور السادات

ـ المهـم أننى فى حضور كل الأطراف ، وفى عنفوان قوتهم وسلطتهم ، سجلت فى وثيقة رسمية ، واقعة عليها شهود لازال بينهم إلى اليوم أحياء ـ أطال الله عمرهم ومتعهم بالصحة والعافية .

ربما أقول أيضا إننا أحيانا نصنع أسرارا وألغازا فى قضايا ليس فيها أسرار وألغاز .

لقد كان الأرشيف الخاص بعصر الملك فاروق كله ضائعا ، ثم عثر عليه بعد سنوات طويلة فى مجموعة دواليب فى بدروم قصر عابدين . وقد اقتضى الأمر للعثور عليها أن يستعان بخبرة الأستاذ حسن يوسف (باشا) الذى كان لسنوات طويلة وكيلا للديوان الملكى ، ثم رئيسا له .

هناك شىء آخر ، وهو أنه فيما يتعلق برئيس الجمهورية فلا يمكن أن تضيع ورقة . ذلك أن كل ورقة ذاهبة إلى مكتب الرئيس موجهة إليه من جهة رسمية ، كما أن كل ورقة صادرة من مكتبه موجهة إلى جهة رسمية .

أعنى أن كل ورقة تصل إلى مكتب رئيس الدولة قادمة إليه إما من رئيس الوزراء ، وإما من إحدى وزارات الدولة : الخارجية أو الداخلية أو الدفاع أو العدل أو المالية أو التخطيط ، أو غيرها من المؤسسات الرسمية مثل المخابرات العامة أو المخابرات العسكرية . . إلى آخره ، كما أن كل ورقة صادرة من مكتب رئيس الدولة لابد أن تكون موجهة إلى جهة ما من هذا النوع .

أعنى أن مكتب رئيس الدولة ليس مصنعا للأوراق أو الوثائق يتم تصنيعها فيه ولا تخرج منه . وإذا حدث ذلك فهى كارثة ، لأن معنى ذلك أن رئاسة الدولة تكلم نفسها .

□ بمناسبة وثائق عبد الناصر . . أرى على مكتبك الآن كتابا عن حرب الاستنزاف . . هل لايزال عبد الناصر مثيرا لاهتمام الباحثين فى العالم ؟ وهل تغيرت وجهة نظر الغرب فيه بعد حوالى ٢٣ سنة من الغياب ؟

ـ اتفق أو اختلف مع جمال عبد الناصر ، ولكن عبد الناصر كان تعبيرا عن عالم ثالث قوى وفاعل فى عصره . . لايستطيع أحد أن يعبر عن كل العصور ، وعندما تحاسب أحدا فحاسبه عن عصره ، ولا تجره خارجه . . وعادة فإن النكسات فى تاريخ الأمم تحدث ـ فى الدرجة الأولى ـ من رجال تجاوزوا عصورهم . . أنا أقول إن

عبد الناصر ـ فى الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٧٠ ـ كان تعبيرا حقيقيا وقادرا عن عصره . . ولكنْ عصر عبد الناصر انتهى ، وتم تجاوزه . . لكن إذا كنا نريد أن نستفيد ، فعلينا أن نبحث تجربته وكيف ترجم فى عصره ضرورات المجتمع المصرى ، وضرورات الناس وحاجاتهم .

□ **لقد رويت سيرة عصره فى كتابك ـ متعدد الأجزاء ـ « حرب الثلاثين سنة » . . فهل انتهيت من هذه السيرة ؟**

ـ لايزال فى كتاب « حرب الثلاثين سنة » جزء ، هو ما يشغلنى الآن . إن هذا الكتاب هو مشروعى الأكبر ، الذى اضطررت إلى قطعه بسبب كتاب حرب الخليج . . وسبق ذلك مشروع عن الصراع بين القوتين الكبيرتين فى الشرق الأوسط ، وقد أنجزت منه الجزء الخاص بالسوفييت فى كتاب « العرب والسوفيت » . وكان المفروض أن أنجز بعده « العرب والأمريكان » ، لكن جاءت الثورة الإيرانية فكتبت «مدافع آية الله » . . باستمرار هناك مشروع قائم لكنه قابل لأن تقاطعه أو تعترضه الأحداث الطارئة .

□ **ومشروع كتابك عن الإسلام السياسى ؟**

ـ إنه ليس مشروعى ، ولكنه اقتراح جاء من ناشرى « هربر كولنيز » لا أتصور أن وقت تنفيذه قد حان .

□□

لكن الوقت قد حان للانتقال إلى موضوع آخر فى الحوار الممتد . . على أننى قبل أن أفعل ذلك أريد أن أتأمل بعض ملامح الوجه الآخر لهيكل .

إن القارئ يتصور أن الكاتب السياسى هو قلم بلا قلب . . أو قلم بارد العواطف . . مصنوع من « الألوميتال » . . يثير المتاعب لا المشاعر . . العواصف لا العواطف .

وتزداد هذه الصورة حدة عندما يكون الكاتب السياسى مثل محمد حسنين هيكل . . فحياته الصحفية عاشها على برميل بارود ساخن . . وحياته العائلية ظلت فى منطقة الظل . . وحياته الخاصة كانت دائما بعيدة عن القيل والقال . . ومن ثم لم

يعرف الناس سوى وجهه العام . وهو ما لايرضى القارئ . . لأن القارئ يؤمن بأن من حقه التدخل فى اختيارات الكاتب . . ولون عينيه . . وتسريحة شعره . . وعلاقته بالمرأة . .

والوجه الخاص لمحمد حسنين هيكل يكشف عن أنه يحفظ ١٠ آلاف بيت من الشعر العربى . . ويهوى سيد درويش وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والتواشيح والموسيقى الكلاسيكية التى تملأ مكتبه ـ مع دخان السيجار ـ وهو يكتب أو يحاور ضيوفه .

وهو يحترم المرأة . . وأغلب الظن أن أمه هى التى علمته ذلك . . فهى ـ حسب ما قاله لسناء البيسى ـ « عملت انقلابا جذريا فى حياتى » . . لقد نذره الأب للأزهر . . وتكفل الجد برعاية دروس تحفيظ القرآن ، وصحبه كثيرا إلى مقام سيدنا الحسين . . أما الخال ففتح أمامه خزائن أمهات الكتب . . لكن . . الأم أخذته من يده واشترت له بدلتين ليصبح بعد أيام تلميذا فى مدرسة « خليل أغا » . . المدرسة التى زامله فيها إحسان عبد القدوس . كان هيكل فى السنة الأولى ، وإحسان عبد القدوس فى السنة الرابعة .

ومثل أى شاب صغير . . أحب « بنت الجيران » . . وقد كتب عن هذه التجربة فى « روز اليوسف » . . فى ١٦ يونيو ١٩٤٤ . . كتب عن « الفتاة التى خفق لها قلبى أول ما خفق » . . والتى قال عنها : « إنها علمتنى أشياء وأشياء ، وفتحت عينى الطفلتين على أشياء وأشياء » . . ثم أضاف : « لن أنسى يوم سمعتها تغنى لأول مرة ، فظللت أتبعها إلى كل مكان تذهب إليه . . » .

وبعد ١٠ سنوات من تسجيل هذا الاعتراف العاطفى ، تقابل لأول مرة مع زوجته السيدة « هدايت تيمور » . . وبدأ اللقاء بمناقشة حامية مع والدتها حول جمال عبد الناصر والإصلاح الزراعى . . وانتهى بإعجاب متبادل ، تطور فى ٢٧ يناير ١٩٥٥ إلى زواج . وقد حضرت أم كلثوم الزواج كصديقة لهيكل ، ولكنها لم تغن لأنه لم يكن هناك حفل زفاف . لكن أم كلثوم كانت تريد أن تغنى للعروسين . وكان أن تبرعت بالغناء لحفلة لجمعية النور والأمل لرعاية المكفوفات ، وكانت العروس عضوة فى هذه الجمعية ومشغولة بجمع التبرعات لها . وبالفعل أقيم الحفل لصالح الجمعية ، وغنت

أم كلثوم لصالح أغراضها الخيرية ، وحضر العروسان أول وصلة ، ثم ذهبا إلى كواليس المسرح يقدمان الشكر معا إلى أم كلثوم .

وقد احتفظت الزوجة باسم أسرتها المعروفة . . ومع زوجها فى رحلات إلى الهند وإسبانيا ، تعرفت على العمارة الإسلامية وفنونها ، واستيقظ فيها الارتباط العاطفى مع هذا التراث الحضارى ، وأقبلت تدرسه كهاوية . وبعد أن كبر الأطفال ، قررت أن تقيم هوايتها على أساس علمى ، فالتحقت بكلية الآثار ، ثم أصبحت معيدة فى الكلية ، ثم تقدمت بالماجستير . ومضت إلى الدكتوراه ، ولكنها توقفت بعد قليل . فقد أحست أن اهتمامها بالآثار لايستلزم بالضرورة بقاءها فى الجامعة ، وإن ظلت على اتصال حميم بكليتها حتى الآن . كما أن أعباء التزاماتها العائلية والاجتماعية جعلت ترتيب أولوياتها طبيعية وتلقائية . وفى هذا كله ، فإنها على حد تعبير هيكل فى حواره مع سناء البيسى ـ لم تخرج يوما عن دورها الذى وضعته لنفسها ، ولا الخط التى رأت ألا تتعداه . . وقد فضلت دائما أن تتوارى عن الأضواء العامة .

إن هذه الملامح الخاطفة تنفى أن الكاتب السياسى مصنوع من المعدن كما يتصور القارئ غالبا . . إنه يحزن ويتألم ويفرح ويبكى أيضا . . لكنه يعيد دفع هذه المشاعر إلى المجرى العام لنهر المجتمع .

وهذا ما جعل سؤالى إلى هيكل عن المرأة يرتبط بالسياسة أيضا .

□ أستاذ هيكل : إلى أى مدى تعتقد أن المرأة يمكن أن تتدخل فى صنع القرارات السياسية ؟ . . إن سر حماسى للسؤال . . هيلارى كلينتون وما يتردد عن نفوذها ودورها وما يقال عن سيطرتها الحديدية على البيت الأبيض .

ـ هذه ليست ظاهرة جديدة . . المرأة تتدخل فى السياسة باستمرار ومنذ زمن بعيد . . فلا يذكر تاريخ العباسيين إلا وتذكر زبيدة . . ولايذكر تاريخ المماليك إلا وتذكر شجرة الدر . . وقد لعبت زوجة لينين دورا بارزا فى ثورته . . وهناك نماذج أخرى معاصرة . . إن المرأة ليست غائبة عن العمل العام . . وعندما تسمح الظروف بأن تقف تحت الضوء نراها وهى تتحرك وتؤثر من الداخل عندما يكون زوجها فى السلطة وليس فى ذلك ما يشين .

ولكن بالنسبة لهيلارى ، فقد خرجت بدورها إلى العلن . . على العكس الذى قنعت به زوجات الرؤساء ترومان وأيزنهاور وكارتر وبوش . . إن أدوارهن كانت بعيدة عن الأضواء . . أما هيلارى ، فقد أعلنت أنها ليست بحاجة إلى إخفاء دورها . . وكل الذى حدث أنها وضعت الدور الخفى ، الخلفى ـ الذى كان يُمارس دائما فى البيت الأبيض ـ فى ضوء الشمس .

ليس عيبا أن تلعب زوجة الحاكم دورا فى الحياة العامة . العيب أن يكون هذا الدور من وراء الستار . . فأخطر شىء فى السياسة أن تمارس المرأة دورا سياسيا فى نصف الضوء أو فى العتمة . هذا مع أنى أعترف أننى متوجس من تزايد دور هيلارى كلينتون ، فهى من بعيد تبدو لى عنيدة . ثم إن نفوذها واضح بقسوة فى اختيارات المناصب الكبرى لإدارة كلينتون . إننى أتمنى لو ركزت جهدها على عملها الرسمى الظاهر ، وهو مشكلة تنظيم التأمين الصحى .

☐ **هل زوجة الحاكم الجميلة أكثر خطورة؟**

ـ تسأل عن سلطان الجمال ؟

☐ **وسلطته !**

ـ الجمال لــه تأثير آخر . . أشد . . بشرط أن يقترن بالذكاء . . فى هذه الحالة سيكون دور زوجة الحاكم أكثر فعالية . . مثلاً . . جاكلين كيندى نجحت فى مد جسور الود والثقة بين المثقفين والمفكرين والبيت الأبيض . . ونجحت فى تحويل مقر الرئاسة فى واشنطن إلى متحف أخذت أعماله الفنية من فائض لوحات متحف المتروبوليتان . . فى مثل هذه الحالة يكون الجمال والأناقة فى صالح المرأة . . لأنها تصبح مقبولة أكثر . .

☐ **وسلطة الجمال فى كواليس السلطة ؟**

ـ الجمال الذى لايستخدم فى الخــير يصبح نقمة . . لعنــة . . واستخدامه فى الوصول إلى أغراض ما سياسية ، فهذه قضية أخرى . . خطيرة . . وخطورتها أنها تمزج بين المرأة والسياسة والعمل الخفى . . وأكثر شىء يخيفنى هو العمل الخفى المتصل بالسياسة . . إذا كان العمل الخفى يتصل بالأمن فهو جائز . . لكن . . عندما يكون فى مجال التحركات السياسية فى الداخل والخارج مباشرة . . يكون كارثة . . لأن العمل

الخفى ينبغى أن يكون على هامش العمل السياسى ، وليس العكس . . والعمل السياسى علاقات وموازين قوى واتفاقات واختلافات . . أما العمل الخفى ، فمؤامرات وطعنات وابتزاز وفضائح . . وفى اليوم الذى يتحول فيه العمل الخفى إلى السياسة الخارجية ، فقل على المجتمعات التى يحدث فيها ذلك السلام . . وللأسف فإن العمل الخفى فى كثير من أمور العالم العربى السياسية قد بدأ يتزايد بجنون ووضوح . . وهذا ما كشفت عنه إيران ـ جيت .

□ **تحدثنا عن هيلارى . . فهل نتحدث عن كلينتون ؟!**

ـ إننى أعتقد أن الناخب الأمريكى كان أدرى بمصلحته ـ وأدرى بجواهر المرشحين لرئاسته ومعادنهم ـ من الآخرين . . لم يكن فى حاجة لنصائح من أحد عند التصويت . . فالشعوب لاتخطئ . . الحكام يخطئون . . وإذا شكى شعب أو تألم من شيء فلابد أن يراجع الحاكم نفسه بسرعة .

والشعب الأمريكى كشف بوش كرجل « كذاب » . . مذكرات شولتز التى تُنشر الآن تثبت أن بوش كان يعلم بفضحية إيران ـ جيت ومشاركا نشيطا فيها . . وهو ما أنكره بوش . . إن أسوأ ما يمكن أن يلصق بحاكم هو الكذب . . وهو ما لصق ببوش أمام الناخب الأمريكى .

لقد أدهشنى أن بعض الناس هنا فى العالم العربى وجعوا قلوبهم وقلوبنا بقصائد رثاء عن بوش بدعوى أنه رئيس عظيم ، وأن الأمريكان سوف يندمون فى يوم من الأيام على أنهم أسقطوه .

لقد رأوا فى العالم العربى من بوش ماناسب المزاج العام أيام حرب الخليج . رأوا الصورة التى رسمها التليفزيون ، ولم يروا ماوراء هذه الصورة وماتحتها . ورأوا مؤتمر مدريد ، وهنا أيضا رأوا سطح الصورة وألوانها ولم يروا ما وراءها وما تحتها .

إن الاثنتى عشرة سنة الأخيرة من حكم الجمهوريين ـ ٨ سنوات من رئاسة ريجان ، و ٤ سنوات من رئاسة بوش ـ نجحت فى تمزيق الأمة العربية بأكثر مما يتصوره أحد .

الغريب أن بعض الناس يشكرون بوش لأنه قام بتأخير ضمانات قروض لإسرائيل بعشرة بلايين دولار ـ ناسين أن هذه أول مرة فى التاريخ يقدم رئيس أمريكى على الوعد

بمثل هذا المبلغ . إنه هو الذى وعد . ثم إنه هو الذى قام بالتأخير عدة شهور. ثم إنه هو الذى عاد بعد ذلك ، فقدم الضمانات لإسرائيل . . ننسى البداية وننسى النهاية ونتذكر موقفا عابرا . . مجرد تكتيك فى وسط القصة .

هناك فى أمريكا ، كان الشعب أكثر وعيا . عرف أن نظام الجمهوريين ـ ريجان وبوش ـ حول الولايات المتحدة إلى أكثر بلد مدين فى الدنيا . حين جاء ريجان إلى الرئاسة لم يكن الدين الأمريكى يزيد على خمسمائة بليون دولار . . مع نهاية رئاسة ريجان زاد هذا الدين إلى قرابة ألفى بليون دولار ـ أى ٢ تريليون دولار ـ ومع نهاية عصر بوش تضاعف هذا الدين إلى ٤ تريليون دولار .

نتيجة هذا كله كساد وبطالة وعجز عن المنافسة مع الآخرين اقتصاديا وتكنولوجيا واجتماعيا أيضا .

إن الشعب الأمريكى كان يعرف أنه إذا سارت الأمور على هذا النحو ، فإن الدين الأمريكى سوف يصل سنة ٢٠١٠ إلى حد أن تكون الفوائد المطلوبة لخدمته موازية لكل الناتج القومى الأمريكى فى هذه السنة .

□ لكن . . سقوط بوش كان نهاية حقبة سيطر فيها الجمهوريون بغطرسة على مقدرات الناس داخل وخارج أمريكا . . مما يعنى أن فوز كلينتون كان رغبة ملحة فى التغيير !

ـ أمريكا شأنها شأن أى إمبراطورية عظمى زادت عليها أعباء وتبعات الإمبراطورية التى تمثلها ، فبدأت تتعب . ولقد كانت فى حاجة إلى مراجعة وإلى بداية جديدة ، لأن ما كانوا فيه كان ببساطة كارثة لايمكن احتمالها .

□ إنها المصيبة التى أوجعت بطن المواطن الأمريكى وأزعجت معيشته وجعلته ينحاز إلى رئيس مثل كلينتون يتحدث عن تدخل الدولة لحماية البسطاء والفقراء .

ـ المواطن أو الناخب الأمريكى وجد نفسه قبل الانتخابات فى بلد يستدين ، ويتخبط فى سياسته . ويكذب حكامه علنا ، ويتورطون فى مغامرات أسبابها غير واضحة أمام الناس .

من إيران إلى لبنان ، ومن جرينادا إلى الخليج . الشعب الأمريكى فى ظنى مارس

ديمقراطية حقيقية ، واتجه بحزم إلى التغيير . إن الاعتماد على الدعاية وحدها لايصنع نصرا ، وهو أقرب إلى صنع الهزيمة مهما كان .

أسوأ هزيمة هى هزيمة بوش لأن الشعب الأمريكى مارس نوعا من ديمقراطية الدرجة الأولى ، وأدرك أن حجم رئيسه لايساوى مسئوليات ما هو قادم . . وأسقطه . .

☐ بماذا تفسر انحياز العرب إلى بوش ؟

ـ من أجل أن يعرف العالم العربى أين هو . . وأين بوش ، يجب أن يقرأ قضيتين هما : إيران ـ كونترا . . والعراق ـ جيت . . لأن كمية الفضائح التى ارتكبناها بأنفسنا بلا حدود . . العراق ـ جيت تحدد طريقة تسليح العراق بقوة لكى يضرب إيران . . ثم بعد ذلك كان لابد من ضرب العراق .

لقد بدأ ريجان ـ كما قال وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز فى مذكراته ـ فى عمل صلات مع إيران ، فى الوقت الذى يبدو فيه وكأنه يساند العراق ، وكانت الصلات مع إيران تؤكد اقتناع ريجان الكامل بإستراتيجية الانحياز إلى إيران .

لابد أن تُقرأ الوقائع ونرى من هم الأبطال ؟ وما هى نوعية العلاقات والصلات؟ ، لأننا سوف نجد صورة كاملة عما تردت إليه أحوال العالم العربى فى العمل السياسى والعلاقات الخارجية وعن الأزمة التى تقابلها أمريكا وهى تحاول قيادة العالم فى أواخر الحرب الباردة وفى أوائل عصر ما بعد الحرب الباردة .

لو قرأ الناس هاتين القضيتين ، سيعرفون لماذا سقط بوش . . وسيكتشفون وجود أزمة سياسية فى العالم العربى . . وأزمات اقتصادية واجتماعية ونفسية أيضا . . وسيعرفون ما هى جماعات القوى التى تتكلم باسم العالم العربى . . وما هى الأدوار الخفية التى لعبتها ؟ . . وعندما نتحدث عن القضيتين فإننا نتكلم فى الواقع عن قلب العالم العربى . . فواحدة متصلة بالحرب العراقية الإيرانية . . وأخرى متصلة إلى حد كبير بما أدى إلى حرب الخليج . . الأمة العربية كلها كانت موجودة فى هاتين المعركتين ، سواء فى هذا الصف أو ذاك . . ولذلك أصبحنا أمة فقدت طريقها إلى المستقبل . . لأنه لايمكن لأمة أن تنهزم أغراضها الحقيقية بهذه الطريقة . . أصبحنا مثل ناس تسير فى الظلام وتتخبط ، ولا أحد يريد أن يرفع العصابات السوداء من فوق العيون لنرى ما يحدث .

أكبر خدمة تقدم لهذه الأمة أن توضع أمامها كافة ملفات وتحقيقات إيران ـ كونترا وعراق ـ جيت . أتمنى أن نضيف إلى هاتين القضيتين قضية ثالثة هى قضية إفلاس بنك الاعتماد والتجارة . . ساعتها سنعرف لماذا خاب رهاننا على بوش .

□ لقد سقط بوش رغم أنه المنتصر .

ـ كان الأمريكيون مصممين على عدم نجاح بوش أكثر من تصميمهم على إنجاح كلينتون . . لقد هزم بوش شخص مجهول، لم يكن معروفا قبل سنة ، ولم يكن محبوبا حتى وقت الترشيح . . لقد أتى الشعب الأمريكى بهذا المجهول من المجهول وأعطاه صوته ، ومنحه فرصة عمره ، لأنه كان يريد أن يعاقب بوش .

□ تقصد أن الشعب الأمريكى اختار كلينتون لا حبا فيه ، بل كرها لبوش ؟!

ـ أقصد أن الشعوب أكثر وعيا من الحكام . .

□ لكن . . هناك جانب آخر فى الصورة هى الأحلام والآمال الداخلية التى وعد بها كلينتون الشعب الأمريكى . . لقد بشرهم بالرخاء . . بعد سنوات البطالة والتضخم وانهيار الخدمات . .

ـ حتى هذه اللحظة أظن أن كلينتون ـ كما بدا من خطابه أمام جامعة نيويورك ـ يتصرف بطريقة معقولة . إنه وضع الشعب الأمريكى أمام حقيقة المشكلة الاقتصادية ، وحقيقة التحدى التجارى الخارجى ، وحقيقة أن المنافسة مع الآخرين لابد أن تكون مشاركة فى صنع المستقبل وليست تراجعا إلى العزلة . لكنى بشكل أو بآخر لست متأكدا حتى الآن من أن كلينتون سوف يكون رئيسا ناجحا بالمعنى التاريخى ، لأنه ببساطة يقود الحزب الديمقراطى الذى قضى ١٢ سنة خارج السلطة ، وهى فترة تغير فيها العالم بوضوح . ومهما كانت المتابعة النظرية فإن خبرة الواقع أهم . . ثم إن فريق العمل الذى يقوده غير متماسك ، وبغير تجربة . ثم إنه جاء بعد نظام أساء التصرف فى لحظة انتقال السلطة . . وألقى بكرات اللهب فى حجر القادم الجديد إلى البيت الأبيض .

□ تحت عبارة « نحن وكلينتون » . . ماذا تقول ؟

ـ أتمنى جدًّا كعرب ألا نكرر مع كلينتون الطريقة السابقة التى عملناها مع غيره من الرؤساء الأمريكيين . . دائما يأتى مع كل رئيس أمريكى جديد موسم حج إلى واشنطن

فى الربيع . . وأنا أعتقد أن هذا لاينفع فى شىء بدون رؤية عربية مشتركة . . أنا أعرف أن وحدة العالم العربى اليوم صعبة جدا ، ولكن هذا لايمنع إمكانية وجود مجموعة من الدول العربية قادرة على التفاهم وعلى التحرك . . مثلا . . مصر وسوريا والأردن وبعض دول الخليج والمغرب . . إننا الآن كعالم عربى لانستطيع أن نتحدث بصوت واحد ولكن لابد أن يكون بيننا صوت عاقل يخاطب العالم الخارجى بما فيه كلينتون . . وهذا الصوت فى خطابه يستطيع أن يستقطب مشاعر القبول فى بقية العالم العربى . . بقايا فى شىء من الاحترام . . أكثر شىء يقلقنى جدا أن الدنيا تعاملنا وكأنها لاتحسب لنا أى حساب . . وهذه مهانة . . كل ما أتمناه هو أن نواجه كلينتون بشىء من الكرامة المستندة إلى فكر عربى واحد . . مع تسليمى أن موقفا إجماعيا عربيا ، مستحيل فى هذه الظروف . . لكن . لابد من رأى عربى مركزى يتكلم ويعبر عن شىء واضح . . وبدون ذلك سنكمل ما كان . . وسنقع فى نفس المأساة التى وقعنا فيها مع الرؤساء السابقين فى أمريكا .

أستطيع أن أقول بشكل أو بآخر إنه حتى كارتر وكامب ديفيد كنا ـ بطريقة أو بأخرى ـ نستعمل الأمريكان فى الضغط على إسرائيل . . أما بعد ذلك ، فقد دخلنا فى عملية أن الآخرين يستعملوننا .

أى أننا تحولنا من فاعل فى التاريخ إلى مفعول به فى التاريخ . . وهذه مأساة .

□ هناك متاعب أخرى تبدو لنا فى علاقاتنا بالغرب . . والسؤال هل هناك الآن معركة فى الغرب بين الغرب والإسلام ؟ هل الإسلام هو العدو الجديد الذى وجده الغرب بعد أن فقد العدو التقليدى فى الحرب الباردة وهو الاتحاد السوفيتى ؟

ـ إننى أتردد كثيرا فى قبول هذه المقولة .

إن هناك دلائل تناقضات كثيرة بين العرب والغرب . وهى تناقضات متجددة . إن الإسلام يبدو فى بعض الأحيان وكأنه العدو ، ولكنى أجد نفسى ميالا إلى الشك فى صحة هذه المقولة .

أظن أن التناقض أكثر بين العرب بالتحديد وبين الغرب .

لا أجد مثلا تناقضا بين الغرب وبين إندونيسيا ، وهى أكبر البلاد الإسلامية تعدادا . كما أنى لا أجد هذا التناقض مع باكستان ، وهى بلد قام على الإسلام أساسا . .

ولا أجد هذا التناقض بين الغرب وبين السعودية ، وهى موطن الأراضى الإسلامية المقدسة . . ولا أجد هذا التناقض مع تركيا ، وهى بلد إسلامى غائر فى قلب أوروبا .

أظنها ليست مسألة الإسلام . . أجدنى ميالاً إلى اعتبار التناقض تناقضا بين الغرب والعرب لأسباب كثيرة .

هناك الجوار الجغرافى لأوروبا مع الشرق الأوسط ، وهذا الجوار يحدث أسبابا للاحتكاك السياسى والاقتصادى والثقافى والعسكرى كما حدث أيام الأمبراطوريات الإسلامية الكبرى . . كان التناقض أيام التوسع الامبراطورى العربى . . صحيح أن الإسلام كان طابع الامبراطورية ، ولكن توسعها الامبراطورى كان هو الخطر بأكثر من مجرد الصلاة والصوم .

الحروب الصليبية لم تكن ضد الإسلام باعتباره دينا ، ولكنها كانت ضد الدولة أو الدول العربية الإسلامية باعتبارها حاجزا يحول دون تجارة الشرق .

أمريكا حتى وقت قريب كانت تغرينا بحلف إسلامى بدلا من الوحدة العربية . . كانت تغرينا بحلف إسلامى يدخل فى مخططها لحصار الاتحاد السوفيتى عندما كان هناك شيء اسمه الاتحاد السوفيتى .

ربما أقول إن الإسلام يزعج الغرب بمقدار ما هو فاعل كهوية حضارية وإنسانية ، ومؤثر فى المقاومة الوطنية من أجل الاستقلال وفى الحركة التقدمية من أجل الوحدة .

أستطيع أن أضيف أنهم لايمانعون إطلاقا إذا غرقنا نحن فى بحر من التدين وذكرنا الآخرة وتركنا لهم الدنيا . . دنيانا بما فيها الموقع والموارد .

هم مستعدون أن يتركونا سعداء بالنوم فى الجوامع ، إذا نحن هجرنا العمل فى المصانع . هذه هى الحقيقة باختصار .

هذا هو إحساسى على العموم ، وأظن أننا مطالبون بمعاودة التفكير فى كل أحوالنا وأوضاعنا .

□ ومتى نعاود التفكير ؟

ـ ربنا يعطيك طول العمر .

□ وأنت أيضا يا أستاذ هيكل .

٣

نحن الآن .. بقايا مـا كان !

- □ كنت أفرح كلما رفضت المحاكم حزبا للناصريين
- □ لن أنضم إلى الحزب الناصرى
- □ تمنيت أن يأتى جيل جديد لم يعمل مع عبد الناصر
- □ الساحة العربية فوضى وخلط سياسى لاحصر له
- □ أتهم أمريكا بالإرهاب ، وهذا هو الدليل
- □ حل المشكلة الفلسطينية لن ينهى صراع الأمن بين مصر وإسرائيل
- □ لماذا يرفض المصريون التطبيع ؟ ولماذا فشل السلام فى عزل مصر ؟
- □ أثق فى المتطرفين فى إسرائيل أكثر من المعتدلين !

لايدور « محمد حسنين هيكل » فى « حلقات الذكر » التى ينظمها « دراويش » الكلمة فى المناسبات السياسية . . إنه مسكون برغبة ناضجة فى تغيير جلد ودم الحياة حتى لايجد نفسه أمام « ضريح » يلتمس منه الوحى والمشورة . . وربما البركة أيضا . . وهو يعرف أن التفكير ليس وظيفة « أميرية » . . ولا الكتابة كذلك . . لهذا يثير ما يقوله العواصف دائما .

وقد وجدتنى أسعى إليه فور أن عرفت أن الناصريين أصبحوا حزبا . . ولا أتصور أننى فى حاجة إلى ذكر سبب . . فقد كان الأشد التصاقا بجمال عبد الناصر . وكان الأكثر دفاعا عنه بعد رحيله . . ثم إنه قادر على فرز التجربة . . واختيار ما يصلح منها للمستقبل . . خاصة فى وقت تسيطر فيه الأصولية على الحياة الحزبية ، وتفرض سلطانها على الجميع .

كيف ينجو الحزب الناصرى من أسر الماضى ؟ . . كيف يحسم خلافاته الداخلية؟ . . كيف لايصبح مجرد رقم فى قائمة الأحزاب ؟ . . أو مجرد صحيفة تباع ـ مع مئات غيرها ـ على الرصيف ؟

هذا هو الموضوع الأول الذى رحت أحاور فيه « محمد حسنين هيكل » . . ثم . . وجدتها فرصة لأضيف سؤالا عن الأزمة الليبية . . وماذا يفعل « محمد حسنين هيكل » لو كان مكان العقيد « معمر القذافى » ؟ . . ثم . . سؤال آخر وأخير عن تهديدات إسرائيل الأخيرة بمحاربة مصر بحجة برودة السلام .

ولأن المطلوب معرفة رأيه ووجهة نظره ، فقد وجدت أن من اللائق أن أجعل الإجابات تتدفق دون حواجز الأسئلة . . ولأن المساحة تخذلنا دائما ، فقد كان نشر الحديث على مرتين (*) .

(*) نشر الحوار فى « روز اليوسف » على أسبوعين متتاليين ، فى العدد ٥٣٣٥ (١١ مايو ١٩٩٢) وفى العدد ٥٣٣٦ (١٨ مايو ١٩٩٢) .

قال هيكل :

كنت أسعد فى كل مرة ترفض فيها المحكمة الموافقة على إنشاء أو قيام حزب ناصرى، وذلك أننى كنت أرى فى الظروف الموجودة حاليا أن الوقت الآن غير مناسب لإنشاء حزب ناصرى . . فعندما جاء جمال عبد الناصر وطرح تصورا لمستقبل العمل الوطنى والقومى ، كانت الظروف مختلفة .

وأعتقد أنه فى تاريخ مصر الحديثة ، هناك مشروعان كبيران هما مشروع محمد على ، ومشروع جمال عبد الناصر .

مشروع محمد على ـ بالدرجة الأولى ـ كان مشروعا « عثمانيا » . . أو نستطيع القول إنه كان مشروعا لتجديد الإمبراطورية العثمانية . . حتى يكون محمد على وعائلته حكاما فى « إستنبول » . . وقد كانت مصر هى القاعدة التى يريد الاعتماد عليها . . فهذا المشروع لم يكن موجها لمصر . . ولكن مصر فى تصور محمد على كانت مجرد قاعدة انطلاق . . وقد استفادت مصر منه . . أى أن القاعدة استفادت سواء فى حركة التصنيع ، أو التعليم ، أو بناء الجيش .

والمشروع القومى المصرى ـ مهما كان صاحبه ـ يقوم على أسس ضرورية ، حيوية ، أبرزها :

١ ـ اتصال مصر بمن حولها : لأن مصر إذا بقيت موجودة فى إطار عزلة الصحراء . . فى إطار سيناء . . ووراء كل هذه الحواجز الرملية الصفراء ، فسوف تظل معزولة بصحراء من هنا وصحراء من هنا . . وهذا الوضع يؤدى إلى الإضرار بها . . ويعزلها عن محيطها الإقليمى ، ويضيع هويتها . . لأن هويتها تتصل بذلك كله .

إذن مقدمة المشروع المصرى ، خروج مصر ـ خروجا حقيقيا ـ خارج حصار الصحراء إلى محيطها الطبيعى ، ومحيطها الثقافى ، ومحيطها الفكرى ، والأمنى . . واتصالها بهذا المحيط اتصالا عضويا .

٢ ـ الشىء الآخر : هو تنمية مصر سواء كانت معتمدة على الصناعة . . أو على الزراعة . . أو على أى شىء آخر . . أى معتمدة على وسائل حقيقية فى الإنتاج . .

بحيث تصل نتيجة هذا كله إلى الإنسان المصرى ، وتحقق له المستوى الذى يوصله إلى الكفاية والعدل . . بمعنى وجود ما يكفى الناس . . مع نوع من عدالة التوزيع .

بعد ذلك ، خذ ما تشاء من القيم . . قيم الاستقلال الوطنى . . والاستقلال بالتجربة . . وذلك على أساس صحى ، سليم ، وضمن علاقات مضيئة لاتتم فى الظلمة .

هذا هو المشروع القومى المصرى .

وقد كان لدى محمد على مشروعه ، وكانت مصر هى الأداة . . وهى القاعدة . . ولكنها استفادت من المشروع ، حتى ولو لم تكن هى الهدف .

ولكن ميزة ما فعله جمال عبد الناصر . . أنه وصل القاعدة بالهدف . . أى بقيت مصر هى والمحيط شيئا واحدا . . شيئا واحدا فى الطموح العام والأمل العام . . والحركة العامة . . وهذا ما عبرنا عنه بعبارة من المحيط إلى الخليج .

إذن جمال عبد الناصر لم يأت بشىء جديد إلا أنه عبر عن الضرورات الحقيقية ، المستمرة لطبيعة الشعب المصرى ، وحقيقة أنه جزء من المحيط ومتصل به .

على أن الظروف الإقليمية والظروف الوطنية والظروف العالمية ، أتت بعد جمال عبد الناصر - بسبب أشياء كثيرة لا أريد الدخول فيها - بأوضاع حاولت أن تنفى التجربة الناصرية . . وأنا فى تصورى : أن أحسن ما يؤكد أى تجربة فى الدنيا هو أن تحاول نفيها . . لأنك إذا حاولت نفيها ، وصمدت للنفى ، فأنت قد أثبتها . . كلنا نذكر القاعدة التى تعلمناها والتى تقول : إن نفى النفى إثبات . . فإذا نفيت تجربة فإنها لم تكن صالحة .

التجربة الناصرية - فى اعتقادى - صمدت طويلا جدا لكل محاولات نفيها . . ولاتزال موجودة . . والدليل على أنها حية . . أن اسم عبد الناصر لايزال معركة دائرة فى كل العالم العربى حتى هذه اللحظة . . حتى وهو فى رحاب الله منذ أكثر من عشرين عاما . . لايزال هدفا يهاجم . . ليس كشخص وإنما كتجربة . . إذن فهذه التجربة ماتزال موجودة وحية . . ومازالت مضيئة فى قلوب الناس .

وقد كنت أتصور أن رفض المحاكم لتكوين الحزب الناصرى كان رفضا جيدا حتى تستمر عملية نفى النفى أكثر . . لأنها فى النهاية سوف تزيد من تأكيد الضرورة إلى العودة إلى المشروع الوطنى والقومى . . وأنه يتجدد . . سواء على مستوى التنظيمات أو على مستوى الناس أو على مستوى الأفراد أو على مستوى الشعور العام . . كنت دائما أقول إن المناخ لايزال غير صالح . . وعملية النفى لاتزال مستمرة . . فلندعها تستمر حتى تصل إلى مداها .

الشىء الآخر : أننى كنت أسائل نفسى . . إلى أى مدى يمكن أن نجد حولنا قوة قادرة على إعادة تجديد المشروع ؟! . . أقول مشروعا وليس نظرية . . لم أجد لدينا سوى خطوط نهتدى بها . . هى أساسيات المشروع القومى والوطنى . . إذن نحن فى كل مرة نحاول تجديده . . يجب ألا ننسى الأساسيات . . ولكن . . الأساليب يجب أن تتسق مع الحقائق الوطنية والإقليمية والدولية الجديدة . . المتغيرة .

إن كل تجربة تكون صالحة للإتيان بنتائجها . . ولكن عندما أوفر لها عوامل حقيقية .

الذى يحدث اليوم وحالة الفوران العالمى ، (حالة الضياع الإقليمى ، وحالة الأوضاع الداخلية) يجعلنى أتساءل عن : من يأتى ويستطيع إعادة صياغة المشروع . ويعطى له قدرة على الحركة . . قدرة على الجرى . . قدرة على الفعل ؟ . . أنا أرى أن هذا الشخص غير موجود بما فيه الكفاية . . لذلك كنت دائماً أقول إنه من الأفضل أن تحكم المحاكم برفض الحزب الناصرى . . وكان هذا يرضينى .

الأمر الثالث : أننى كنت أتمنى دائما ـ فى خيالى ـ أن يأتى جيل جديد لم يعمل مع جمال عبد الناصر . . لم يره . . ويكون إلهامه الوحيد هو المشروع نفسه . . بحيث إنه لا يتهم بالرغبة فى استعادة مكان أو سلطة أو نفوذ . . ولا يحمل أى شىء يخص هذه التجربة . . لأن كل تجربة فيها إيجابياتها وفيها سلبياتها . . ولايحمل أى أثر من آثار الماضى أو تركاته ، وإنما لديه المشروع كاملاً ، ولديه التجربة يستطيع دراستها وتقييمها وإعادة صياغة حركتها وأساليب فعلها .

وفى هذه الفترة كنت أهتم جدا بالشباب الذى يحمل الفكر الناصرى ـ فى

الجامعات ـ وقد جاء لى بعض من هؤلاء ، وقالوا : نريد عمل تنظيم ناصرى . . قلت لهم : إننى لست صاحب تنظيمات . . ولاأستطيع الدخول فى تنظيم . . أنا شغلى الأساسى هو أن أفكر وأكتب لعامة الناس . . هذه هى قيمة ما أفعله . . إننى لا أستطيع أن أحصر نفسى داخل تنظيم لسبب واضح جدا . . هو أن فى طبيعة أى إنسان يفكر ، أو يحاول الاتصال بالعالم ، رغبة فى التحرر ، لاتتوافر فى الأحزاب . . فكل حزب له تنظيمه وقواعده وانضباطه . . وأنا أتصور أن الكاتب بطبيعته لايستطيع أن يقبل لاقيدا ولا تنظيما . . يمكن أن يكون عنده هدف سياسى . . أو متحيز . . وأنا متحيز لصالح جماهير الشعب المصرى . . للناس الذين أراهم والذين أقابلهم ، وأتحدث معهم . . لدى طموحات للعدل الاجتماعى . . وللاستقلال . . أنا منحاز لكل هذا . . لكن أساليب تحقيق هذا تقتضى تفكيرا باستمرار . . وهذا ما يجلعنى خارج التنظيم باستمرار .

أنا لم أنضم لهيئة التحرير ، ولا للاتحاد القومى ، ولا للاتحاد الاشتراكى . . والرئيس جمال عبد الناصر كان يعرف ذلك ، وكان يقول : اتركوه . . ليس هذا فقط ، وإنما دخلت فى معارك طويلة جدا مع التنظيمات السياسية . . وحتى التنظيمات التى كنت أعتقد أنها تقوم بدور جيد جدا ، مثل منظمة الشباب . . لأننى بطبائع الأمور كنت أطرح أشياء مختلفة . . أنا أتذكر أن جريدة « الأهرام » حُرقت بعض نسخها فى ميدان «الجيزة» لأننى كتبت عن تحييد أمريكا وعن المجتمع المفتوح . . وقد كان جمال عبد الناصر يقول لى : سوف أدعك تكتب ما تريد ولكن لن أحميك . . لاتطلب منى الحماية . . وكنت أقول له : إننى لا أريدها . . وأذكر أن جريدة « الجمهورية » التى كانت معبرة عقائديا عن الاتحاد الاشتراكى ، كانت تخرج ـ فى ٤ أو ٥ صفحات كاملة ـ لتهاجمنى . . هذا فى الوقت الذى كنت فيه أقرب الأصدقاء إلى جمال عبد الناصر . . أنا كنت أطالب بتحييد أمريكا منذ سنة ١٩٦٥ ، لأن الواقع العالمى كان يتغير . . كنت أقول إننا بحاجة إلى إعادة النظر فى حركة عدم الانحياز لأننا نريد إعادة صياغة المشروع . . لأننى كنت أرى التغيرات . . وكنت أرى نجوم الأفكار فى العالم !

إن التفكير يختلف عن التنظيم . . فالتنظيم يربى أفراده على المنطق السائد . . على الانضباط . . والحزم . . أما التفكير فيرفض ذلك ، لأنه يقيد صاحبه ويبعده عن التحليق فى الآفاق دائما .

هذا اعتقادى منذ البداية . . أما عندما قام بالفعل حزب ناصرى ، فأنا لا أستطيع إلا أن أكون صديقا لهذا التنظيم ومتعاطفا معه .

إنها مهمة شاقة أمام الحزب الجديد . . أن يحاول البحث فى أفكار كانت موجودة . . أو يعيد النظر إليها . . أو يحاول التحدث باسمها . . أو يتصدى للدفاع عنها . . وخاصة أن الساحة المصرية ، والساحة العربية كلها بها كمية من الخلط السياسى لا حصر له . . أنا لو كنت مكان أى إنسان . . أو مكان أى منتم سياسى ، لابد أن أشعر بكمية من الفوضى داخل عقلى ليس لها حدود . . وبالتالى أقول : لم لا . . عندما يأتى أحد يقول بالناصرية أو متأثر بها !

وعندما تسألنى : هل ستدخل فى الحزب الناصرى ، أقول لك بدون تردد « لا » . . صديق له ، « نعم » . . لكن ليس فى صفوفه . . لأننى بطبيعتى ـ وقد يكون هذا عيبا فى وليس فيهم ـ لا أقبل الصف . . ولا أكون داخل الصف . . فأنا أرى أن من واجبى أو من دورى أن أذهب للبحث عن أشياء تقبل الصواب والخطأ . . أن أجرب الأفكار وأطلع عليها . . ولكننى فى الوقت نفسه ألتزم بالأسس الثابتة فى المشروع القومى المصرى، لكن التزامى بهذه القواعد لايمنعنى من البحث والتفتيش . . وإذا بحثت وفتشت فسوف تدخل فى صدام مع غيرك . . وبالتالى ، فأنا منذ أول لحظة قام فيها حزب ناصرى قلت : حسنا . . مبروك . . وقلت : إننى صديق فقط . . فمنطق التنظيم غير ملائم لى . . أنا أفضل أن أجلس للكلام وأهاجم فيها أتكلم فيه وأدخل فى معارك حقيقية أو غير حقيقية ، ويغضبوا منى ولا أرد على أحد . . لكن أقول : إنى أريد أن أحاسب بآرائى ، دون أن يحسب هذا على آخرين .

وأعتقد أنه قد يكون ملائما أن أقول إن أول شىء يفعله حزب ناصرى هو تقييم للتجربة الناصرية . . لايستطيع أن يبدأ بدون ذلك . . وأتصور أن يضع ذلك فى برنامجه . . إنه استئناف لشىء كان موجودا ذات يوم . . لاتزال ثوابته باقية . . إذن أول شىء يجب فعله أن يقولوا ماذا فعلوا فيما مضى ، وأين كان وجه القصور ، وأين كان وجه الإنجاز . . وماذا كانت النتائج . . وكيف يمكن أن نعيد صياغة النتائج . . والثوابت بأسلوب جديد للحركة ؟!

أنا أتصور أن النظرة على ما كان ؛ ضرورية جدا . . ولا يستطيع حزب أن يستأنف

عمله إلا بالعودة إلى ما كان ، طالما أنه يقول إننى أريد استئناف شىء كان . . أقول له تعال ، وقل لى ماذا جرى فى هذا الشىء الذى كان ؟ . . وليكن عندك بصر وبصيرة فى النظر إليه . . ثم قل لى : « ومن هنا نبدأ » .

أما ما يقال عن الخلافات بين الناصريين والجمود الذى أصاب بعضهم ، وصراع الأجيال فى داخلهم ، فقد حدث شىء من هذا النوع فى كل تجربة فى التاريخ . . ومن الصعب تصنيف الناس ـ كما تقول ـ بين ناس عملت وناس تحلم ، لأن معنى ذلك أنك ستجد هؤلاء الأفراد عند الموقع الذى تركتهم فيه فى يوم من الأيام . . لابد أن نتصور أن الناس تأثرت بتجاربها . . تأثرت بمرور السنين وأصبحت الآن ـ بشكل أو بآخر ـ لها رؤى مختلفة . . ويمكن أن تقول بالنسبة للشباب الحالم بالناصرية إنه تاه وضاع لفترة طويلة ، وإن بعضه دخل السجون ، وخرج من السجون . . ودخل فى صدامات وخرج من صدامات . . لكن يبقى على كل حال أنه لم يجد نفسه فى الواقع . . وإنه لم يفقد قدرته على التفاعل .

والتجارب موجودة أمامنا . . خذ من هذه التجارب ما حدث فى فرنسا فى وقت الحرب العالمية الثانية . . فى أثناء هذه الحرب ، كانت هناك حركة « فرنسا الحرة » التى كانت تقاوم النازى ولم تكن لديها شرعية ، وإنما كانت تعمل تحت الأرض . . وتعرضت بعد ذلك لمشاكل عديدة . . مما أدى إلى إصابتها بمرض الشتات وتبادل الاتهامات . . وعندما جاء ديجول ليلم هذا الشتات ، ماذا فعل ؟ . . كتب مذكراته وقال : إننى سأبدأ بالوثائق ـ لأن الناس اختلفت للغاية فيمن فعل ومن تورط ـ ووضع هذه الوثائق قبل مذكراته بحيث يظهر أدوار الناس . . ولكن أهم شىء فعله أن المناقشات داخل حركة « فرنسا الحرة » أفرزت بعد ذلك قيادات . . أفرزت حزبا من عناصر جديدة .

إذا لم يستطع الناصريون القيام بهذه العملية ، فليس أنا الذى أحكم عليهم . . أو أنت . . بل سيولد هذا الحزب على هذه الدرجة من الضعف . . أو هذه الدرجة من القوة . . هذا راجع إليه .

أنا غير قلق من هذه العملية ، لأنها فى النهاية ـ بقدر ما هو مطلوب فيها من شجاعة وعمق ـ ضرورية لولادة وميلاد حركة . . وهى ضرورية للصحة التى تولد فيها هذه الحركة . . وبقدر ما تكون مقنعة وبمقدار ما يستطيعون فى الداخل أن يديروا

مناقشة جريئة ومستنيرة ـ وليس مجرد الجلوس وتبادل الاتهامات . . لتقييم ما جرى ، سينجح الحزب . . وأنا أعتقد أننا سنجد ـ فى النهاية ـ فى التجربة الناصرية ما هو إيجابى جدا . والدليل على ذلك أنها ماتزال حية فى قلوب ملايين الناس حتى فى العالم العربى . . لكن إذا لم يستطيعوا عمل ذلك ، وإذا لم يستطيعوا ـ فى النهاية ـ الخروج من هذا الماضى المتشابك والمتشعب بفرضية للمستقبل فإنهم سيصبحون مثل غيرهم .

وأريد القول إن التجارب السياسية ، والتجارب الإنسانية لانستطيع عملها بمشرط جراح . . نحن لانفعل ذلك . . ولانستطيع أن نتصورها سلفا . . ونتعسف فى طلب اشتراطات نطبقها عليها . . لأنها عملية يقوم بها بشر . . لأنها عملية إنسانية . . وإذا كانت همتهم أكبر من مشاكلهم القديمة ولهم رؤية للمستقبل، وإذا كانوا استفادوا شيئا من تجاربهم كلها . . إذن فسوف يخرجون بفرضية إلى الناس الذين سيحكمون عليهم . . فالأحزاب التى ليست فى السلطة لن تستطيع التأثير فى الناس إلا بمقدار ما هى مؤثرة فعلا . . وليست هناك وسيلة أخرى . . لاتستطيع أن تقنع إلا بما هو مقنع . . فإذا لم نستطع ، فالمشكلة ليست مطروحة علىّ ولا عليك . . والمسألة تبقى مجرد همسات فى الظلام . . وفى النهاية لن يحدث شىء .

أنا أتمنى أن يجلس الناصريون فيما بينهم ويخرجوا بتقييم للماضى ينظر أكثر للمستقبل . . أكثر مما يقف عند حسابات ما كان . . يعنى أن يبقى أن مبرر وجودك هو أن يكون لديك رؤى صالحة أيضا للمستقبل . . فتعال وقل لى : كيف تصلح رؤاك للمستقبل بكل ما لديك . . وبكل مواردك . . أين وكيف وبأى وسائل ؟

ويبدو أن هناك مخاوف أن يعيش الناصريون فى سلفية . . وأقول : إن الواقع الراهن هو كله بقايا مما كان ذات يوم . . بمعنى ـ وأقولها بوضوح ـ أن حزب «الوفد» اليوم . . أنا لا أرى رؤاه المستقبلية . . لكن هو عودة إلى ما كان . . ربما هو مقبول من البعض . . لكن يبقى أن الناس هى التى تحكم . . العمل السياسى بطبيعته عمل جماهيرى وحزبى . . أنا لدىّ جماهير وسوف أصل إليها وأقنعها ، لأنى بواسطة أصوات هذه الجماهير سوف أصل إلى السلطة . . أنا أريد أن أصل إلى السلطة لأن لدىّ حلها قابلا للتحقيق . . يبقى أن تحكم الناس . . حزب العمل هو بقايا « مصر الفتاة » الذى كان . . لماذا نحجب عن الناصريين الحق الذى أعطيناه للوفديين . .

ونتخوف عليهم بأكثر مما أنت متخوف على « مصر الفتاة » أو« الإخوان المسلمين » الذين هم موجودون فعلا فى حزب ؟ . . الحزب الوطنى نفسه هو البقية الباقية لكل الجماعات التى كانت تلتف حول السلطة فى مصر . . إذن كل ما هو قائم بقايا ما كان . . يمكن أن يكون الناصريون بقية من هذه البقايا . . وإذا أثبتوا أنهم شىء مختلف يكون هذا شيئا هائلا .

وفى ظل المتغيرات الداخلية والخارجية يجب أن ينتبه الحزب الناصرى إلى الأساليب . . إن الثوابت لا خلاف عليها : الخروج من حصار الوطنية المصرية بمعناها الضيق . . العدل الاجتماعى . . الاستقلال الوطنى . . إلخ . . هذه ثوابت المشروع القومى . . ولكن . . كيف يمكن تحقيق خطوة واحدة فى هذا الاتجاه ، وسط الكتل المتراكمة والمتزاحمة الموجودة الآن فى العالم العربى ؟

إن أول متغير هو أنك أمام شعب مصرى فاقد الثقة بكل شىء . . إذا كنت تريد عمل أى مشروع لابد أن تأخذ الناس معك . . قل لى كيف يمكن ذلك ؟ جمال عبد الناصر عندما جاء أخذ الناس فى مصر بشيئين :

إنه أقدم على أشياء ضخمة بشخصية « كارزمية » . . مثل تغيير النظام الملكى . . وتحديد الملكية . . والإصلاح الزراعى . . وتأميم قناة السويس . . وبناء السد العالى وتحقيق وتأكيد الاستقلال الوطنى والقومى . . ودخل فى عملية تصنيع ليس لها حدود . . ودخل فى أشياء أخرى كثيرة جدا . . ولكن دخل فيها فى ظروف ما كان . . جعل شخصيته الكارزمية تصل إلى العالم العربى الذى كان يقول : « من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر لبيك عبد الناصر » .

قل لى كيف تستعيد ثقة الشعب المصرى اليوم فى عمل سياسى . . إن هذه هى المعضلة الكبرى . . لأن الشعب المصرى كما أراه وكما أحسه فاقد الثقة فى كل شىء . . وأنا أقول إنه يعطى ظهره لكل ما يراه أمامه .

هذا أول تحد كيف أتجاوزه ؟ . . هذه قضية . . وهى ليست مشكلتى . . فلو كان لدى حل لكنت دخلت الحزب . . وإنما أنا أقول فى كتاباتى أساليب واجتهادات قد تراها ملائمة أو خيالية . . ولكن يبقى أنك كحزب لابد أن يكون لديك ما تقوله ، وإلا فلماذا جئت ؟

وهناك العدل الاجتماعى . . كيف يمكن أن نحقق فكرة استقلال الإرادة فى هذه الظروف الموجودة فيها ؟ . . نحن فى واقع الأمر أمام حكومة عالمية تفرض عليك أمورا فى أوضاعك الداخلية . . وهى صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى . . لقد تحولا إلى حكومة عالمية تفرض على حكومات كثيرة جدا ـ بما فيها روسيا التى لديها ٣٠ ألف رأس نووى ـ كيف تدير اقتصادها . . نعم روسيا لابد أن تسير على وصفة البنك الدولى حتى تواصل التنمية وتحقق التقدم الذى تريده . . ولو أنك استطعت تحدى نظام الهيمنة الموجود . . فما هو البديل ؟ . . إذا قلت إنك ترفض هيمنة صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، فأين البديل الذى لديك ؟

إذن نحن أمام ثوابت . . لكن التعبير عن هذه الثوابت لابد أن يأتى بأسلوب متغير ليواجه الحقائق المستجدة فى العالم .

على أنه فى الوقت نفسه ليس هناك متغير أقوى من إرادة الإنسان ، وإلا نكون كمن يتحدث عن قوى ميتافيزيقية ، أو عن زلازل وبراكين لاقبل للبشر بالسيطرة عليها . . طالما أن البشر لديهم إرادة فيكونون قادرين على مواجهة وتطويع أى متغيرات إذا وجدوا الإجابات المناسبة للتحديات المطروحة عليهم . . لكن لا أستطيع القول بأن أكون يائسا لأنى إذا قلت بذلك فسوف أسلم للحياة كلها وأذهب . . إن كل متغير موجود هو من صنع الإنسان . . وكل إجابة على تحد مطروح لابد أن تخرج من عقل إنسان . . ليس هناك شىء مستعصى ، ولكن الهمة هى التى تنقص ، وليست المقدرة النظرية . . نحن فعلا بحاجة للشجاعة . . لكن بشرط أن تكون مسلحة بالإرادة والوعى . . وإذا قلت إن حجم التحديات أكبر مما أستطيع مواجهته . . فدع غيرك يستطيع .

□□

□ ما الذى يمكن أن تفعله لو كنت مكان العقيد معمر القذافى فى أزمته المؤقتة مع الغرب ؟ . . لقد اتهمه الغرب بالإرهاب . . ونجح فى فرض الحصار على بلاده . . وتركه مثل الأسد السجين . . ماذا تفعل لوكنت مكانه ؟

ـ ليس هناك رجل يستطيع أن يضع نفسه مكان رجل آخر ، لأن صاحب المكان أدرى بدواخله ، كذلك فإن حسابات السلطة أعقد من أن يحسبها البعيدون عنها . . من حق كل الناس أن يبدوا آراءهم ، وأن يجتهدوا ، وأن يشيروا ، ولكن المسئولية ـ أولا

وأخيرا - تقع على كاهل من لديه السلطة ووسائل السلطة بما فيها المعلومات والأسرار ووسائل الاتصال وأدوات الفعل وطاقاته . . وبالتالى أنا أناقش معك الأزمة ولكن لا أضع نفسى مطرح القذافى .

وبداية فإن مشكلة الرئيس القذافى مشكلة معقدة جدا . . لقد كنت أول إنسان يراه مساء يوم الثورة . . فعندما قام هو ورفاقه بالثورة وأطلقوا شعاراتهم ، كنا هنا فى مصر نعقد مؤتمرا للرئيس العراقى السابق أحمد حسن البكر . . والسوريون كانوا حاضرين . . وعندما وصلتنا شعارات الثورة الليبية ، شعرت أحزاب البعث أن أصحاب هذه الشعارات ينتمون إليهم . . فقد كانت الشعارات عن الحرية والاشتراكية والوحدة . . ونحن بدورنا تساءلنا . . هل ينتمون إلينا أم إليهم ؟

وتوقفت اجتماعات دول المواجهة بعد أن انشغل الجميع بحادث الثورة الليبية . . وبدأت الناس تتساءل عن هوية الثوار . . وكان من المهم أن نقرأ الشعارات التى رفعوها بالترتيب حتى نعرف هويتهم . . ولم يمر سوى بعض الوقت ، حتى طلبوا من قنصليتنا هناك أن نرسل لهم أحدا من القاهرة . . وعندما سألناهم : من ؟ قالوا : هيكل . . لعدة أسباب . . إنهم يعرفون صلتى بعبد الناصر . . ولأنهم يسمعون مقالاتى وأفكارى فى إذاعة « صوت العرب » . . وذهبت إليهم فى مساء يوم الثورة . . وأتيح لى أن أعرف قائدها عن قرب .

المشكلة الكبرى بالنسبة للقذافى أنه جاء بمساحة كبيرة من البراءة ، وهناك انفصام بين آرائه وبين الواقع . . بالإضافة إلى أنه منذ رحيل جمال عبد الناصر ، ذهبت كل الأحزاب والتيارات والقوى السياسية العربية إليه . . كل منها قال له كلاما مختلفا . . وهو يصدق الجميع . . وفى النهاية بقيت لديه مشكلة كبيرة جدا . . إنك عندما تقول إنك تريد عمل رحلة فى عقل القذافى تحتار . . خاصة عندما تغوص فى تصوراته للعمل الثورى . . لقد دخل فى أشياء غير طبيعية . . مثل مساندته للجيش السرى الأيرلندى . . وقد حدثنى ثلاثة من رؤساء الوزراء المتعاقبين فى بريطانيا (هيوم وويلسون وكالاهان) عما يفعله القذافى مع الجيش السرى الأيرلندى . . إنه تصور أنها منظمة ثورية فراح يدعمها . . وهى غير ذلك .

المشكلة أنه لديه هذا الخلط الفكرى . . هناك أحزاب عربية تخلط . . لكن هذا

الخلط لم يكن مسلحا بالثورة (ولا بالثروة) الليبية . . إن الخلط الليبى خلط غنى جدا . . وبالتالى كانت قدرته على إحداث مشاكل ليس لها حدود . . ومن ثم وضع نفسه فى موضع الشبهات .

وهناك شيء نسيناه ، وهو أننا إذا كنا نقول إن حرب الخليج كانت معركة بالدرجة الأولى من أجل السيطرة على الطاقة . . فأنا أخشى أن تكون الأزمة الليبية جزء من معركة من هذا النوع . . وخاصة أن بترول ليبيا من النوع « الخفيف » ، وهى تنفرد بإنتاجه . . وهو مهم للغاية بالنسبة لإيطاليا وفرنسا وألمانيا . .

وإذا كانت الأزمة فى جزء منها ترجع للبترول ، فإن هناك رغبة فى تصفية مجموعة من النظم موجودة على قائمة التصفية ، منها ليبيا وكوبا وكوريا الشمالية . . وفيتنام . . ولعل هذا ما جعل حكومة كوريا الشمالية تقبل التفتيش على مفاعلاتها النووية حتى تمنع الأزمة قبل حدوثها . . إنها بؤر قديمة مطلوب تصفيتها .

ولو كنت مكان القذافى ، فإن أول شيء أفعله هو أن أصبر بدون عصبية . . لأن القضية التى أمامه فيها شروخ فى البناء الموجود . . هناك شرخ شركات التأمين الكبرى على الطائرات ، والتى شاركت بحملة كبرى فى كل وسائل الإعلام الأمريكية (من صحيفة « واشنطن بوست » إلى مجلة « تايم ») ، وهى تقول إنهم ليسوا ليبيين ، وإن انفجار الطائرة فوق لوكربى مسألة لها علاقة بالمخابرات وتجار السلاح . . وحتى قرار مجلس الأمن ـ والذى يضرب الحصار حول ليبيا ـ لايطالب بتسليم المتهمين . . وإنما يطالب بالتعاون إلى أقصى حد مع جهات التحقيق . . كذلك المقاومة الموجودة فى العالم العربى بدأت تعطى آثارها . . ودور السياسة المصرية بدأ يحدث آثاره . .

المقصود . . أن متغيرات كثيرة حدثت فى الموقف . . وأن الطوق الحديدى محتاج للصبر والتصرف بعقل . . أكثر شيء يخشى منه فى الموقف الليبى هو العصبية والتقلصات . إن العصبية هى السبب فى تضارب تصريحات المسئولين فى ليبيا . . وهو تضارب يشعرك بأنه ليس هناك تصور أو تصرف ليبى موحد . . إنها تصرفات عصبية . . وأغلبها يعتمد بالدرجة الأولى على أن ليبيا تملك أموالا !

على العقيد القذافى أن يثبت فى مكانه ويزن مواقفه . . وينظر كيف يتصرف العالم الخارجى . . ويتابع التشققات الحادثة فى البناء القانونى وفى الجبهة الخارجية التى

أمامه.. ولكن معنى وجود تشققات لايعنى أن يطمئن القذافى ؛ فالضغط قائم ، ولابد من البحث عن مخارج ، وبجانب الوضع العام لابد من وجود أفكار . . مثل لماذا لا تعقد محكمة دولية فى دولة عربية ، ويتعهد البلد العربى بتطبيق حكمها ؟ . . هذا مثال . . ولا يجوز أن يغلق باب الاجتهاد .

ومن الأمور التى لم نلتفت إليها ، أن السكرتير العام للأمم المتحدة كان مستعدا للعب دور كبير بالنسبة للأزمة الليبية ، وكذلك الأمين العام للجامعة العربية . . لكنهما تراجعا . . إن تجربتهما المصرية مع ليبيا فرضت عليهما التعامل بحذر مع القذافى فى منصبيهما الحاليين .

إن القضية الآن مفتاحها الهدوء والتفكير والاتصال واستغلال الثغرات الموجودة واستعمال الصداقات والمؤسسات والدول المتعاطفة مع القذافى . . والدول صاحبة المصلحة فى بترول ليبيا . . إن بعض الدول الغربية لها موقف مختلف مثل إيطاليا وفرنسا بسبب البترول الليبى الخفيف . . والقريب .

ولن يؤثر فى حل الأزمة أن يلجأ القذافى إلى الخطاب الدينى (التهديد بإعلان جديد للدولة الفاطمية) ، أو الخطاب القومى ، فهذا استعمل كثيرا حتى أصبح مثل العملة التى بهتت نقوشها . . نحن فى حاجة إلى شىء آخر . . يبدأ بالصبر وينتهى بالعقل .

ويجب أن نفهم أن دعوة أمريكا للتصدى للإرهاب يجب أن تنطبق على أمريكا نفسها . . فأكبر مصدر لتمويل الجيش السرى الأيرلندى يأتى من أمريكا . . من ولاية ماسوشيتس ، لوجود مهاجرين أيرلنديين متعاطفين مع الجيش السرى الأيرلندى . . والكونجرس يعرف ذلك . . كذلك فإن الذين دبروا حادث اغتيال اللورد مونباتن موجودون فى كاليفورنيا ، والسلطات الأمريكية تعرفهم ، ولا أحد يفتح فمه .

والحكومة الكويبية قدمت إلى مجلس الأمن مذكرة للتحقيق مع الكوبيين الذين أسقطوا طائرة الرحلة رقم ٤٥٥ في سنة ١٩٧٦ ، وكان عليها ٨٢ شخصا ، فلم تستجب الولايات المتحدة ، ولا استجاب أحد لطلب الاستجواب .

إنها دعوة حق يراد بها باطل .

إن الأزمة القائمة لن تذهب من تلقاء نفسها ، أى أنها لن تختفى بالتقادم ، أو

بمجرد كسب الوقت ، ولكن فى هذه اللحظة أشك فى إمكانية اللجوء إلى القوة المسلحة فى وقت قريب . وحتى ذلك ، فإن ليبيا ستتعرض إلى أنواع من الضغوط تستهدف أن يفقد الطرف الليبى أعصابه ويقوم بتصرفات تسحب الأزمة إلى نطاق مختلف .

إذن فليبيا والأمة وراءها مطالبون بكثير من التفكير الخلاق ، بمقترحات وأفكار متأنية يمكن أن تفتح سبيلا للانفراج . . وعلى ليبيا أن تفكر ليس فقط فى طريقة تفلت بها من المصيدة ، وإنما فى أسلوب حياة وأسلوب ممارسة ودور لا يضعها باستمرار فى طريق وحوش الصيد .

□□

□ قال « ديفيد عفرى » إن اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل ليست مرضية . . وإنها أقرب إلى هدنة منها إلى الصلح بين البلدين . . وإن خطر تجدد الحرب بين مصر وإسرائيل مازال قائما . . وأعقب هذا التصريح بإرسال لواء ميكانيكى إضافى إلى منطقة رفح . . وسبق أن قال رئيس الأركان الإسرائيلى ، الجنرال « ياهودا بارك » فى أغسطس ١٩٩١ : « إن على إسرائيل أن تكون مستعدة لخوض أى حرب حاسمة ضد العرب على جميع الجبهات بما فى ذلك مصر » . .وقال أريل شارون وزير الإسكان والمستوطنات كلاما مشابها . . وكذلك موشى أرينز وزير الدفاع . . فما رأيك ؟

ـ عندما يقول أى جنرال فى إسرائيل مثل هذا الكلام ، فإننى مستعد للقول بأنه كلام صحيح ودقيق . . أكثر من ذلك ، أنا أثق أكثر فيما يقوله إسحق شامير . . أكثر من ثقتى مما يقوله شيمون بيريز أو إسحق رابين . . مايقوله شامير هو تعبير حقيقى عن جوهر المشروع الإسرائيلى ؛ وجوهر المشروع الإسرائيلى هو دعوة دينية لإقامة إسرائيل الكبرى . . وليس فيه « هزار » . . وحتى أصدقاء المشروع الصهيونى ـ مثل تشرشل وبلفور ـ الذين فتحوا له الطريق والأبواب ، تحدثوا بوضوح عن دعوة موجودة فى الكتب المقدسة . . أو مستخلصة من الكتب المقدسة . . إنهم تحدثوا عن دعوة دينية . . والدعوة الدينية بطبيعتها غير قابلة للتجزئة . . ولاتقبل الحل الوسط . . هناك حل أو لا حل . . ليس هناك نصف حل . . وقد استطاع الإسرائيليون ـ فى ظروف تاريخية معينة ـ أن يحققوا هذا الحلم . . كما أنهم يملكون القوة لحماية ما حققوه .

وعندما اتفقوا مع مصر ، فإن هدفهم كان تحييدها . . وخاصة أنها ليست داخلة فى

حلمهم . . كما أن مصر « كبيرة » عليهم جدا . . عددها ٥٦ مليون نسمة . . وقبل نهاية هذا القرن ، سوف تتجاوز ٧٥ مليونا . . إنها قوة وطاقة بشرية ضخمة . . ومهما قيل عن متاعب الحجم السكانى ، فإن البشر قوة كامنة لايمكن الاستهانة بها . . إنهم فى حد ذاتهم مشكلة بالنسبة للآخرين .

ويزيد من حدة مشكلة الحجم بالنسبة لإسرائيل ، حركة التعليم الواسعة الموجودة الآن . . هناك من يقول إن مستوى التعليم سيئ . . أنا أوافق على ذلك . . لكن لا أوافق على إيقاف حركة التعليم لهذا السبب . . لأن حركة التعليم هى الطريق الوحيد ـ مهما كان التعليم سيئا ـ الذى يجعل الناس تعيش فى عصر المعلومات . . الإنسان الذى تعلم نصف تعليم فى الجامعات أفضل ألف مرة من غير المتعلم . . المتروك فى الريف . . الأول بجهد بسيط يستطيع أن يتعامل مع عصر المعلومات . . أما الآخر فهو خارج الزمن تماما .

والتعليم فى مصر هو الوسيلة الوحيدة للصعود الاجتماعى . . وبالتالى لايجوز أن يقترب أحد من التعليم . . هناك بالفعل حركة تعليم هائلة فى مصر . . وحركة تنوير . . رغم كل المعاناة والقلق اللذين نعيشهما . . وهذا سببه أن الناس أصبحت تملك من الوعى ما يجعلها تدرك الفرق بين الوهم والواقع .

إن هذا الوعى يفزع إسرائيل . . لذلك كان لابد أن تبعد مصر عن محيطها العربى . . إن اتصال مصر بهذا المحيط أهم أساسيات مشروعها القومى . . إنها ضرورة قومية ، عربية ، ملحة . . خاصة بإمكاناتها الإنسانية والبشرية . . وفى إسرائيل لم يقبلوا ذلك . . ومن ثم ، فإنهم يريدون أن تكون إسرائيل عبارة عن «حائط» بين مصر والعالم العربى . . حائط بين إفريقيا العربية وآسيا العربية . . وهذا هو جوهر صراع الأمن بين مصر وإسرائيل . . لو استغنينا عن قضية فلسطين . . هذا هو جوهر الصراع بين المشروع القومى المصرى الذى من أساسياته الاتصال بالمحيط العربى ، والمشروع القومى الإسرائيلى الذى من أساسياته قطع الاتصال . . إذن نحن أمام تصادم إرادات . . وما لم تأخذ التسوية السلمية فى اعتبارها ذلك ، فلن تكون . . أو لن تكون تسوية حقيقية !

وهذا ينعكس دون أن ندرى على كل شىء بين مصر وإسرائيل . . التطبيع مثلا . .

لا أحد يريده . . إن المصريين يرفضونه لأسباب تتعلق بالإحساس . . والإحساس يحكم التصرفات أحيانا أكثر من المنطق . . ممكن أحيانا أن تغيب الحجج عنك ، لكن دوافعك تحركك لا إراديا .

يمكن أن تسمع من يقول : إن سبب الرفض هو الثأر الذى تركته الحروب السابقة بين مصر وإسرائيل . . ولكن . . إذا حسبنا عدد الشهداء فى الحروب مع إسرائيل، سنجد أنه أقل من عدد الجنود المصريين الذين أرسلهم « خديو » مصر لمساعدة «ماكسمليان » فى المكسيك للبقاء فى الحكم . . وكان عددهم ٢٠ ألفا . . ولم يرجعوا . . إذن الموضوع ليس موضوع ثأر ، وإلا نكون بذلك « نهمش » الصراع . . هذا موضوع متعلق برؤى المستقبل العربى كله بما فيها الرؤية المصرية .

والموضوع ليس موضوع ذاكرة تفقدها أجيال لم تعش الحروب . . فالشعوب تحكم باعتبارين :

١ ـ بمواريثها الثقافية والفكرية الموجودة . . وقد تنسى الوقائع . . ولكن أثر هذه الوقائع يبقى فى الناس ، يشكل قناعات داخلية عندها ، وهذا هو صميم جوهر الإيمان .

٢ ـ الشىء الآخر هو الاحتياجات اليومية ، الملحة . . كل يوم نتكلم عن عالم عربى . . إن ذلك ليس مجرد كلام . . فكل شىء فى حياتنا جاء من هناك . . الإسلام . . اللغة . . حركة البشر . . التاريخ . . الدفاع . . الأمن . . إلى آخر هذا كله . . وعندما يقول لك أحد إنك معزول عن المصدر ، فلابد من فتح الطريق . . لايمكن بقاء جدار قائم . . عازل . . مثل سور برلين . . بل أسوأ منه . . لأنه لا يحتوى على القمع فقط ، وإنما على الزيف والدعاية المضادة والقوى الخارجية أيضا .

وعلى ذلك فإن أى إستراتيجى إسرائيلى يجد أن هذه الحقائق الفعلية ـ سواء ما هو موروث منها كمعتقدات أو ما هو قائم منها كضرورات ـ تؤثر على التطبيع . . ويرى أن التطبيع متوقف . . ويرى أشياء أخرى موجودة . . قد تكون كامنة . . وليست ظاهرة . . ولكنها فاعلة . . أى إستراتيجى إسرائيلى يرى ذلك لابد أن يقلق . . وهذا ما يعبر عنه الجنرالات هناك بالسلام البارد . . أو الهدنة المؤقتة . . إلخ .

وقد تفرض الظروف حربا جديدة . . لكننا يجب أن ننتبه إلى أننا أمام أنواع مختلفة من الصراع . . وهناك تطورات كثيرة حادثة فى العالم . . دول تتمزق لأن ليس لديها أساس للتماسك . . وقوى أخرى تنمو على أساس المصالح . . أنا أرى أوروبا الشرقية بتمزقاتها وأوروبا الغربية ـ من السويد حتى البحر الأبيض ـ بمصالحها ، قد وقعت معا مؤخرا على اتفاقية السوق . . وهذا مالم يخطر على عقل بشر قبل سنوات .

إذن هناك أهداف عظيمة جدا يمكن أن تتحقق دون طلقة سلاح . . الإمبراطورية السوفيتية سقطت دون أن يضربها أحد . . تذكر أن حلف وارسو وحلف الأطلنطى وما وراءهما من دول صرفا على السلاح حوالى ٦٠ تريليون دولار . . لك أن تتصور ذلك . . كان موجودا على الناحيتين حوالى ٧٠ ـ ٧٢ ألف رأس نووى . . وبالرغم من ذلك ، إحدى الإمبراطوريتين سقطت بدون حرب . . بدون ضرب . . إذن يمكن أن نتصور معارك يتحقق فيها انتصار بسبب شىء واحد ، وهو أن يتأكد طرف أنه لم يعد فى قدرته أن ينتصر .

ولكن فى حالة الصراع العربى الإسرائيلى لن يحدث مثل هذا ببساطة . . أو لمجرد توقعه أو تمنيه . . ولكن أجيالا عربية قادمة ربما تستطيع أن تدرك حقائق وجود الأمة ، وأن تمسك بحقائق هذا الوجود ، وأن تمارس صراعا عصريا حضاريا تستعمل فيه هذه الحقائق وقوة الفعل الكامنة فيها .

والإسرائيليون يرون ذلك . . ولكن . . للأسف العرب لايرونه !

وقد حاولوا عزل مصر وإبعادها عن المعادلة العربية . . وتصوروا أن المشكلة ستحل . . لكن المشكلة لم تحل . . فكان لابد أن يفكروا فى وسائل أخرى . . منها اتهام مصر بالتباطؤ فى السلام . . إنهم فى واقع الأمر لايهددون . . وإنما يستعدون على مصر القوة المتصدية لمحاولة صنع السلام . . لقد قيلت هذه التصريحات فى إطار الضمان الأمريكى المطلوب لحركة الاستقرار والاستيطان . . وبغرض كسب الرأى العام وأخذ المزيد من اعتمادات السلام . . إنها جزء من خطة شاملة للمستقبل .

أحيانا نحن ننظر للأمر من زاوية واحدة . . وننظر للأقوال والتصرفات بالقطاعى . . وأنا أتصور أنك إذا عملت بالسياسة ، فلابد أن تنظر للأمور من جميع جوانبها .

٤

سُلطة مُلقاة فى عَرض الطّريق !

☐ الضباط الذين أخذوا السلطة لم يزد عددهم عن ٧٤ فقط

☐ عندما قامت الثورة ، لم يكن الأمريكان يعرفون اسم جمال عبدالناصر

☐ مايلز كوبلاند مـغامر وكتابه ممول من دولة عربية

☐ عبد الناصر كان يكتب يوميـاته وليس مذكراته.. وهى عندى

☐ عدد المعتقلين فى عصر عبد الناصر لم يزد عن ١٤ ألفا فقط .. عن أى نظام شمولى يتحدثون ؟!

☐ أثرت فى عبد الناصر بقدر ما تأثرت به ، واختلفت معه كثيرا

☐ السرير الذى كان عبد الناصر ينام عليه كان عهده .

يبدو (*) . . أن ساعات الزمن فى أيدينا واقفة أو مكسورة . .

الوقت عندنا لايمر . . أو نحن لانريده أن يمر . . فالواقع مر . . واليوم أفضل من الغد لكن الأمس أجمل منهما . . فلماذا لانعود إليه ؟!

لماذا لانرجع إلى الوراء ٤٢ سنة . . عمر ثورة يوليو ؟! . . لماذا لانجلس فى محطة الماضى ننتظر وجه الملك « السعيد » ، صاحب الرأى الرشيد . .

الذى سيعيد إلينا الزمن الجميل ؟! . . إنه سيحمل الذهب إلى بيوتنا . . سيغرقنا فى أنهار اللبن والعسل . . سيضع على موائدنا الكافيار ،

واللانجوست والبان كيك . . سيعيد إلى الدستور قدسيته . . وإلى القانون احترامه . .

وإلى الحرية وجودها . . وإلى الأصول والتقاليد نفوذها . .

سيجعل العميان يبصرون ، والأموات ينهضون . . وسيحقق العدل المفقود . .

هذه هى الصورة المرسومة بألوان قوس قزح عن مصر قبل الثورة ، والتى يبيعونها لنا فى معظم الصحف وعبر قنوات النفط الفضائية . . مستغلين ذاكرتنا الضعيفة . . وساعاتنا الواقفة ، المكسورة . .

بعد ٤٢ سنة ، أصبح علينا أن نتساءل : أين الحقيقة ؟! . .

قطعت أكثر من ٥٠٠ كيلو متر ـ ذهابا وعودة ـ من القاهرة إلى قرية صغيرة فى

(*) نُشر هذا الحديث فى « روز اليوسف » فى العدد ٣٤٥٠ (٢٥ يوليو ١٩٩٤) ، بمناسبة مرور ٤٢ سنة على ثورة يوليو .

الساحل الشمالى فى يوم واحد لأعرف الإجابة من محمد حسنين هيكل . . الإجابة عن السؤال وعن أسئلة أخرى لاتقل أهمية . .

□ أستاذ هيكل : ألست معنا فى أن أهم أسباب نجاح ثورة يوليو هى أن النظام كان ضعيفًا وأنه كان سيسقط . . سيسقط ؟ . .

ـ النظام الذى أسقطته الثورة كان هشًا . . ولو لم يقم جمال عبد الناصر بالتغيير لقام به غيره . . لو عشت مثلنا فى ذلك الوقت لآمنت مثل معظم الناس بأن إعصار الثورة قادم . . قادم . .

□ لماذا ؟!

ـ من الناحية السياسية : ثورة ١٩١٩ انتهت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ . . فقدت بريقها وتحالفاتها منذ ذلك الوقت . . ومن الناحية الاقتصادية . . كانت ثروة مصر تتمثل فى الزراعة . . حوالى ٥ ملايين فدان . . منها مليون فدان للملك ، ومليون لأسرته ، ومليون للأوقاف الملكية ، ومليون للملاك الأجانب . . ومليون فقط للمصريين . . وترتب على هذا الوضع أن المجتمع أصبح مثل هرم قاعدته العريضة فقيرة جدًا ، وقمته المدببة ثرية جدًا . . وبلغة الأرقام كان ١/٢ ٪ من السكان فى سنة ١٩٥٢ يستأثر بحوالى ٥٠٪ من الدخل القومى .

أنا كنت فى صباى وفديا بمشاعرى . . من منا لم يكن وفديًا فى ذلك الوقت ؟! . . لكن الوفد . . حزب الأغلبية لم يمكث فى السلطة طويلاً . . والقصر زادت سلطته . . والإنجليز لم يخرجوا . . والاستقلال ـ أهم أهداف الوفد ـ لم يتحقق . . فى سنة ١٩٥٠ أنا سمعت من النحاس باشا أكثر من مرة : إن أنصار الوفد تعبوا من الطرد والرفت . . والحزب نفسه تعب من العناصر التى تربعت على قمته وراحت تضارب بالصفقات .

حريق القاهرة ـ فى اعتقادى ـ كان دليلاً واضحًا على إفلاس النظام كله . . المشاكل الاجتماعية والاقتصادية أعادت طرح نفسها . . وبقسوة . . والحريق ألقى بسلطة الدولة فى الشارع . . أى أحد كان يستطيع أن يأخذها . . لكن القوى الموجودة كلها كانت من العجز بحيث لم تستطع . . خافت من المسئولية وتحدى الشرعية . . خافت من الملك ومن الإنجليز .

الذين أخذوا السلطة كان عددهم لايزيد على ٧٤ ضابطًا من الضباط الأحرار . . وهذا هو عدد أفراد التنظيم الأصليين . . وكانوا شبابًا . . ومعنى أن يأخذوا سلطة الدولة أن هذه السلطة كانت مرمية فى الشارع لأى عابر سبيل يأخذها . .

فى يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ ، كنت أتكلم مع جمال عبد الناصر ، وشرحت له أسبابى فى عدم تدخل الإنجليز لو تحرك الجيش . . وسافرت أنا إلى الإسكندرية لأرجو نجيب الهلالى باشا ألا يشكل الوزارة . فشعرت أن الإعصار قادم، فأخذت سيارتى ـ الأوبل السوداء ـ وسافرت إلى الأسكندرية . وفى بيت نجيب الهلالى قالوا لى : إنه عند حافظ عفيفى (رئيس الديوان) فجريت إلى هناك . . وهناك عرفت أنه فى قصر المنتزه ؛ فعدت إلى بيته من جديد ، وانتظرت حتى جاء . . وعندما جاء ، قال لى : « إحنا أخذنا كل التعهدات من الملك » ؛ وأخرج لى ورقة من جيبه وقرأ لى ٦ نقاط . . قلت له : ما هى الضمانات ياباشا ؟! . . قال : يامحمد . . « حنكتّبوا » الملك «كمبيالة» . . ورجعت إلى القاهرة وأنا أستشعر التغيير .

فى يوم حريق القاهرة أذكر أيضًا أن أحمد حسين اتصل بى تليفونيا ، وكنت فى مكتب على أمين ، والساعة ٩,٥ صباحًا ، وقال : معقول أبرز شباب الصحفيين قاعد فى مكتبه ولا يعرف ما يجرى فى القاهرة ؟! . . مخبر صحفى شاطر زيك قاعد فى مكتبه والقاهرة بتتحرق ؟! . . لم يكن الحريق قد تجاوز كازينو فى الأوبرا . . ونزلت لأرى مايجرى . . رأيت أطلالا تقع . . ونظامًا يحترق . . بحريق القاهرة ، كان النظام قد أعلن إفلاسه . .

شوف الوزارات كيف كانت تتغير ؟ . . وزارة نجيب الهلالى الأولى أقيلت بمليون جنيه ، دفعت عن طريق كريم ثابت للملك لإيقاف قضية تهرب من الضرائب . . وشفت نجيب الهلالى وهو لايتخيل أن الأمور يمكن أن تصل إلى هذا الحد .

□ ألا يشفع لنظام ما قبل الثورة أنه كان ليبراليًا ؟ !

ـ فى هذا العصر الليبرالى الذى تتحدث عنه ، ضُرب حسن البنا زعيم الإخوان المسلمين بالرصاص فى الشارع . . وأجهزوا عليه فى مستشفى قصر العينى . . هل هذا معقول ؟!

□ لم يختلف الأمر سوى فى الأسلوب بعد الثورة . .

ـ أنا سمعت مؤخرًا أحد وزراء الداخلية السابقين وهو يحذر قائلاً : « إنتو عايزين ترجعوا للعصر الشمولى » . . قلت له : أنت فى وقت جمال عبد الناصر ـ فى ١٨ سنة ـ طبقًا لبيان ألقاه وزير الداخلية الأسبق النبوى إسماعيل فى مجلس الشعب ـ كان عدد المعتقلين ١٤ ألفًا . . أنت النهاردة عندك ٤ أضعاف هذا العدد . . عن أى نظام شمولى يتحدثون ؟!

□ كان من السهل كما تقول أن يمد جمال عبد الناصر يده ـ هو ورفاقه ـ ويأخذوا السلطة الملقاة فى عرض الطريق . . وهذا ما حدث . . لكن . . كيف تحول جمال عبد الناصر من انقلابى إلى ثورى ؟!

ـ جمال عبد الناصر شأنه شأن أى شاب لم يكن يدرك الحقيقة ، كان يرى مظاهرها . . لا جوهرها . . لذلك لم يكن فى ذهنه سوى هدفين فقط : إلغاء النظام الملكى والألقاب . . وتحديد الملكية الزراعية .

وقد نجح فى الهدف الأول ونفذه بسهولة . . لكنه عندما دخل فى موضوع الملكية الزراعية أدرك أنه لو جرت انتخابات برلمانية فإنه لن يحدث تغيير ، لأن الانتخابات ستأتى بملاك الأراضى . . نفس الوجوه القديمة . . هنا بدأ التحول فى تفكير جمال عبد الناصر الذى اكتشف أيضًا أن الجهاز الحكومى خرب ، وعاجز عن تنفيذ المشروعات الاستثمارية الجديدة ، فكان أن أنشأ مجلسا أعلى للإنتاج ينفذ المشروعات المقترحة قبل الثورة وتمولها ميزانية الدولة ، ومجلسا أعلى للخدمات تموله الأموال المصادرة من أسرة محمد على . لكن . . . هذه المشاريع كان سيدخل فيها الرأسماليون ، فهم وحدهم القادرون . . . ومن ثم سيزداد الأثرياء ثراء . . وسيزداد الفقراء فقرًا ، وهو مارفضه جمال عبد الناصر وجعله يبحث عن بديل آخر وطريق آخر . . وهكذا تحول فكره ناحية التمصير . . وبعد مرحلة كان التأميم . .

الدكتور عبد الجليل العمرى له تعبير بليغ . . كتبته أكثر من مرة . . إن مصر كانت مثل بقرة ترعى هنا ولكن ضروعها كانت تُحلب فى الخارج . .

□ إذن القضية الاجتماعية هى التى غيرت تفكير هؤلاء الضباط الشبان الذين كانوا بلا خبرة فى الحكم . .

ـ نعم : هؤلاء اكتشفوا أن المصريين لايملكون بلادهم . . واكتشفوا أن على السلطة الجديدة أن تعيد ملكية البلد إلى أصحابه الحقيقيين . . وهو مافعلوه . .

□ بصراحة ياأستاذ هيكل أنا قرأت كثيرا عن دور « الأمريكان » فى الثورة . . وقرأت دفاعك فى كتاب « ملفات السويس » لكن لا أزال أشعر بالقلق . . فهل صحيح أن ثورة يوليو « أمريكية » الصنع ؟ !

ـ اللبس فى هذا الموضوع جاء من الكلام الذى كتبه « مايلز كوبلاند » فى «لعبة الأمم» . . وفى كتابى « سنوات الغليان » أنا نشرت مجموعة خطابات مايلز كوبلاند التى تثبت أنه كان مغامرًا ومستعدا أن يقدم أى خدمة بالفلوس . . بعدها لم يفتح فمه . . وهدد أنه سيرفع علىَّ قضية . . لكنه لم يفعل . . إنه نصاب . . وأخشى أن كتابه كان بتمويل عربى . . وفى كتاب مايلز كوبلاند، لا نجد سوى الإيحاء بأنه كان يعرف أن الجيش يمكن أن يكون مصدرًا للثورة . . وهذا الإيحاء كان الناس فى مصر يعرفونه . .

فى أخبار اليوم اشترينا مذكرات اللواء فؤاد صادق (قائد القوات المصرية فى حرب فلسطين) . ودفعنا له ألف جنيه ، وكنا ونحن نسلم له المبلغ ـ وكان معى على أمين ـ نتصور أنه يمكن أن يكون قائد الثورة المنتظرة فى مصر . .

الناس كلها كانت تستشعر التغيير ، وكانت تستشعر غليان الجيش وقدرته على السيطرة . . لذلك ما قاله مايلز كوبلاند لم يكن سرًّا .

وزاد اللبس فى هذا الموضوع ، أن الثورة اتجهت للأمريكان أول مااتجهت ضمن القوى الخارجية . . لكن لو نظرت إلى الخريطة الدولية ساعتها ستجد السبب واضحًا . . الإنجليز دولة محتلة . . الروس بعاد عنك . . الفرنسيون قوى استعمارية . . ثم إن الأمريكان لم يكن قد ظهر منهم ما ظهر فى فيتنام وغيرها فيما بعد .

وأستطيع أن أشرح الآن فكر عبد الناصر الانقلابى نفسه وبألفاظه تقريبًا . . كان يرى أن البلد مهيأ للتغيير . . لكن البلد خائف من « عصا » يمسك بها الملك هى

الجيش . . خذ من يده العصا واعطها للناس ، سيأخذ بعضه ويمشى . . ليس أمامه أى حل آخر .

□ **لكن . . جيفرسون كافرى السفير الأمريكى فى القاهرة هو الذى أقنع الملك فاروق بالتنازل والرحيل . .**

ـ كافرى كان مثل الآخرين يشعر بأن فيه حاجة حتحصل فى البلد ، لأن الوضع القائم غير قادر على الاستمرار . . قد تدخل كافرى لأن على ماهر ـ وكان قد أصبح رئيسًا للوزراء ـ كان يمثل النظام القديم ، فتصور كافرى أن النظام لا يزال يحكم ، ولم يتصور أن الضباط الشبان هم الذين طلبوا من على ماهر الاتصال بالسفير الأمريكى ، واستغلوا علاقاته القديمة معه .

كافرى طلب على ماهر يسأله عما حدث . على ماهر من جانبه كان يرغب فى طمأنة الأمريكان ، فقال لكافرى : إنها حركة داخلية . . وهكذا لعب كافرى دوره فى إقناع الملك بالرحيل . . وفى ذلك الوقت لم يكن أحد ـ ولا الأمريكان ـ يعرف واحدا اسمه جمال عبد الناصر . . كان مجهولاً للجميع . . ولو كان الأمريكان قد فعلوها لكانوا قد راهنوا على قيادة كبيرة فى الجيش كما فعلوا فى باكستان وأمريكا اللاتينية . . إنهم ينظرون إلى الجنرالات لا إلى بكباشى مجهول مثل جمال عبد الناصر .

□ **إلى أى مدى ساهمت يا أستاذ هيكل فى عقل وضمير جمال عبد الناصر ؟ ! . وهل اختلفتما معًا . . إلى أى مدى ؟ !**

ـ أنا شفته فى الفالوجا . . وبعدين جاء يشكو من ارتفاع أسعار الكتب ، وطلب نسخة من كتابى « إيران فوق بركان » . . وجاء مرة أخرى مع زكريا محيى الدين وتحدثنا عن البدو فى سيناء الذين يتجنسون بجنسيات أجنبية . . وكانت مشكلة أمنية . . وجاء مرة ثالثة يسأل عن الانقلابات فى سوريا . . . . . وقد كان يقرأ لى كثيرا .

ثم . . كان ما كان يوم الثورة . . وهو معروف . . لكن أستطيع القول إن عبد الناصر وأنا قد توثقت الصلة بيننا فى سنة ١٩٥٣ . . من ساعتها ونحن نتكلم فى كل شىء تقريبًا . .

وأعتقد أننى أثرت فيه بقدر ماتأثرت به . . إنها طبيعة العلاقات الإنسانية . . . بالتأكيد أنا تأثرت به جدا ، وأعتقد أنى أيضا أثرت فيه فى المجال الذى أعرفه . . كنت وقتها عائدًا من كوريا وعارف إيران واليونان . .عارف الشرق الأوسط والشرق الأقصى . . وأستطيع أن أتحدث عن العالم ؛ وأكثف قراءاتى . . وهو مشغول لكنه مستعد أن يسمع . .

لكن اختلفنا . . نعم اختلفنا . . لكن عيب أن أذكر مااختلفنا فيه حتى لا أدّعى البطولة على حساب رجل لم يعد على ظهر الحياة . .

ومن يقرأ ما كتبته وهو على قيد الحياة ويتابع ما حصل ، يكتشف أننا اختلفنا فى مواضيع كثيرة جدا . . مثل قانون تنظيم الصحافة . . أنا فى مؤتمر صحفى قلت : إننى ضد القانون . . . وتلاحظ ملحوظة مهمة ، وهى أن كل الصحفيين الذين اعتقلوا تقريبا لأسباب متعلقة بالمهنة كانوا من الأهرام . . لطفى الخولى وأحمد نافع وحمدى فؤاد وجمال العطيفى مثلاً . . .

□ لا أحد تصور أن من الممكن الاختلاف مع عبد الناصر دون عقاب . .

ـ ليس صحيحا ، وإنما كان الرجل مفتوحا للمناقشة بلا حدود . . الحملات الجارفة التى استهدفت عبد الناصر حرَّفت تقريبًا كل ما قال أو فعل . . شوف هذه الأمة تلف وتدور . . تروح وتجىء . . ليس فى تاريخها الحديث إلا محمد على وجمال عبد الناصر . . الأول مشروع عثمانى والثانى مشروع قومى . . وأنا أعتقد أن كل انقلاب على جمال عبد الناصر يساعد على مزيد من حالة الخلخلة التى نعيشها الآن . . فنحن كمن يجلس على فرع شجرة وهو ينشر فى جذعها !! . .

□ بصراحة . . أنت من القلائل الذين عملوا مع جمال عبد الناصر واستمروا معه إلى آخر لحظة فى حياته دون أن ينقلب عليهم .

ـ هذه مقولة لم تُختبر . . كثير ممن عملوا معه استمروا طويلا . . بل إن بعضهم استمر أكثر من اللازم متجاوزاً عمره الافتراضى . . أعضاء مجلس قيادة الثورة بقوا معظم الوقت . . . كانوا جميعا موجودين من عام ١٩٥٢ وعلى الأقل حتى سنة ١٩٦٤ . شوف عزيز صدقى ، ومحمود فوزى ، ومحمود رياض ، وصدقى سليمان وعلى صبرى ، وعشرات أو مئات غيرهم .

أنا لم أر شخصًا انقلب عليه جمال عبد الناصر . . بالعكس الرجل كإنسان من صفاته البارزة أنه صديق حقيقى . . كان رجلاً يدرك أهمية التحكم فى أعصابه . . كان يقول دائمًا : أنا ماأقدرش « أتنرفز » . . . . وإذا شعرت بذلك لا أقابل أحدًا . . . لأسباب كثيرة منها « الكاريزما » التى كانت تنبع منه . . . وما يستتبع ذلك من سلطة معنوية تجعله قادرًا على أن يفعل مايريد . . . وكان يحس بسلطته . . . لذلك لا يصدر قرارا وهو عصبى . . .

ثم إنه لم يخن طبقته ، وظل ينام على سرير فى غرفة نوم عهدة لإدارة الأشغال العسكرية . . وبعد أن توفى ، طالبت الأشغال العسكرية بالعهدة . . هل أحد يصدق ذلك ؟!

رجل غير قابل للفساد . . . احتفظ بولاءاته الطبقية . . هل أحد يتصور حاكما فى العالم الثالث بكل هذه السلطة ولا يفسد ؟!

□ أستاذ هيكل . . ما الذى تبقى من ثورة ٢٣ يوليو بعد ٤٢ سنة ؟!

ـ لابد أن نتفق على أن هناك فهما خاطئا للتاريخ . . مرات نتصور أن حادثا تاريخيا معينا لابد أن يبقى مستمرا بصفاته وذاته وشكله ، فإذا ما اختلفت نهايته عن أصله معناه أنه فشل . . . نحن ننسى أن فيه عملية « الهضم التاريخى » . . وهى شبيهة بعملية هضم الطعام . .

وثورة ٢٣ يوليو حدث ، لو ظل فى طوره أو شكله الأول لانتهى بأن يحطم نفسه . . . نحن أمام حدث استوعبناه وأحدث أثره عندنا . . وهذه قضية يجب فصلها تمامًا عما آل إليه هذا الحدث . وعندما نسأل . . أين ٢٣ يوليو اليوم ؟ . . سنجدها فى مسائل مادية كثيرة أصبحت جزءا من الحياة العادية ، الطبيعية ، ودخلت فى عروق المجتمع ونسيجه . . مثل السد العالى ، وقناة السويس ، وشبكة المصانع المتنوعة . . إلخ .

قيمة الحدث التاريخى أنه يحول مجموعة أحلام إلى جزء من واقع الحياة اليومية . . . لو ظلت الأحلام أحلاما . . لو ظلت الثورة فى حالة فوران . فى حالة تغيير مستمر وعنيف . . . نكون كمن لم يفعل أى شىء حقيقى . .

أنا عندى فى النهاية السد العالى ، وقناة السويس وعملية تصنيع ليس لها مثيل فى العالم الثالث ، وهى ناجحة ، ليست فاشلة كما يقال ، صروحها موجودة . . وجدتها فى الأوقات الصعبة ـ ولاتزال ـ تخدمك . . ليس هذا فقط . . بل يضاف أنها كانت متميزة . . الاتحاد السوفيتى اقترح أن نبدأ بالصناعات الثقيلة لكن جمال عبد الناصر رفض وأصرَّ على أن يبدأ بالصناعات الاستهلاكية . وأنا حضرت هذه المناقشة فى موسكو سنة ١٩٥٨ عندما ذهبنا للاتفاق على أول برنامج للتصنيع . . كان من رأى عبد الناصر أن عنده قطنًا وقصبا ونحتاج لسماد وأسمنت . . فلا بد أن تبدأ الصناعة من هذا المحور . . وهذا ما جعلنا لا نتعرض لأى نقص فى معظم المنتجات الاستهلاكية ، وهذا ما جعل الاتحاد السوفيتى ـ الذى أخذ منهجًا مضادا ـ يتعرض للحرمان وينهار .

إذن على المستوى المادى ، حققت الثورة إنجازات ضخمة ، وهى إنجازات استوعبها المجتمع وأصبحت جزءا من حياته اليومية . وأنا أعتبر هذا نجاحًا .

وعلى المستوى المعنوى ، أنا أتوقف طويلاً عند حق التعليم . . البعض يرفض المجانية . . وأن يتعلم ابن البواب . . والبعض يرى أن التعليم انخفض مستواه . . وأنا لا أعترض . . لكن نصف متعلم أفضل من جاهل . . فالجاهل لا يمكن أن يستوعب التكنولوجيا . . أنا ليس عندى مانع أن يكون مستوى التعليم يثير الشكوى . . . لكن عندى معيارا واحدا للتعليم هو أنه المنفذ الوحيد للحراك الاجتماعى . . ثم . . . إن كثيرًا من النابغين خرجوا من نظام التعليم فى ذلك . . . مثل د . مجدى يعقوب . . كذلك فإن التعليم فتح آفاق التغيير . . . فلم تعد المهن تورث كما كانت قبل الثورة ، فليس مكتوبًا على ابن الفلاح أن يكون فلاحًا و لا على ابن البواب أن يكون بوابًا . . وهكذا . .

ومع ٢٣ يوليو ، ارتبطنا بالعالم وبالمنطقة التى حولنا وبالعصر . . لقد استوعبت الثورة العصر ، وعندما فقدت قدرتها على استيعاب متغيراته شاخت وانتهت .

□ **ومتى عجزت الثورة عن فهم العصر ؟!**

ـ تستطيع أن تقول إن العصر بدأ يختلف ابتداء من عام ١٩٦٥ . فى هذه الفترة كان العالم يتغير . . وأنا واحد من الناس الذين يعتبرون كارثة ١٩٦٧ نتيجة طبيعية لعدم

الوعى الكافى بأن العالم من حولنا يتغير . . ويمكن لنا عذر فى جزء لأن العالم كله لم يكن يعى أنه يتغير . .

ابتداء من عام ١٩٦٥ جاء الكومبيوتر والفضاء ووسائل الإنتاج الحديثة . وفى هذه الفترة حدثت أزمة الاتحاد السوفيتى الداخلية ، وحدثت فيها أزمة الولايات المتحدة بسبب فيتنام .

إننا لم نستوعب التغير ولم نستوعب آثاره على القوى الكبرى . . على سبيل المثال نحن فى عام ١٩٦٧ ، لم نستوعب أن الاتحاد السوفيتى يمكن أن يسمح بأن نواجه أزمة كالتى واجهناها . . وفى واقع الأمر الاتحاد السوفيتى لم يكن يقدر على مواصلة التحدى أكثر مما فعل . . اختلفت قواعد اللعبة عما كانت عليه فى عام ١٩٥٦ . . . لكنك لم تستوعب ذلك فوقعت فى ١٩٦٧ .

□ هل عدم استيعاب ما يحدث فى العالم يعكس أزمة فى نظام الحكم الثورى فى مصر فى ذلك الوقت ؟ !

ـ بالتأكيد . . لكن . . العالم كله لم يتنبه ، وعكس ذلك أزمات فى معظم دوله . . على أن النظام الذى قام على ٢٣ يوليو كان عليه تجديد نفسه ، وأن يبدأ محاولة جديدة لاكتشاف مفاتيح مختلفة فى عالم متغير .

□ أنا موافق أن ٢٣ يوليو موجودة فى نسيج التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، وأنا أشعر بذلك جيدا . . لكن أشعر أيضًا أنها موجودة وبنفس القدر فى نسيج التغيرات السياسية . . بل دعنى أقول بصراحة إن ٢٣ يوليو خنقت القوى السياسية وجماعات الضغط المتنوعة وأعادت الحياة السياسية لمرحلة جنينية . .

ـ أنت تتكلم عما بعد ٢٣ يوليو . . هى أدت دورها وواجهت أزمة فيما يتعلق بنفسها، وواجهت أزمة فى الإقليم وفى العالم . . فى الإقليم حصلت مسألة هامة جدا . . البترول . . وفى العالم حصلت زيادة كبيرة جدا فى قوة أحد المعسكرين وحصلت تغييرات وأنت لم تستطع تفهمها . .

وما حدث بعد ذلك هو أنك لم تحاول أن تفهم أزمتك الحقيقية . . المشكلة أن الناس الآن كلها حيارى . . عاجزة عن الانفصال عن الأزمة العالمية . . والأزمة الآن

أزمة قيم . . . قبل أن تصل من القاهرة ، كنت أقرأ عن أن الرئيس الأمريكى كان يشم الكوكايين وهو حاكم لولاية أركنسو ، وكان حارسه يحضر له النساء . . أزمة قيم وهى مستحكمة لأن الآخرين يواجهونه بمؤسسات وأبحاث . . أما أنت فعليك أن تحتملها دون مساندة . .

مجموعة القيم التى جاءت بها ثورة ١٩١٩ كانت تتركز فى الدستور والاستقلال والحريات العامة والخاصة . . وعندما جاءت ثورة ٢٣ يوليو جاءت بقيم المساواة الاجتماعية ، وعدم الانحياز ،والسيادة الوطنية . . . لكن ما يحدث الآن هو أننا نتعامل مع أشياء بلا أصول . . . تقول السلام . . كلام فى المطلق . . يعنى إيه سلام؟ والدبلوماسية المصرية ـ على سبيل المثال ـ ضيعت شهرًا بأكمله لإقناع الإسرائيليين بعدم تفتيش ياسر عرفات تفتيشًا ذاتيا وهو داخل غزة . . ما معنى هذا السلام؟ . . . لا معنى له . . أو معناه غير واضح ، كما كان واضحًا معنى الحق العربى من قبل .

القضايا الآن ملتبسة جدا . . نحن فى عصر بأكمله يبحث عن مجموعة قيم جديدة . . حتى الأثرياء فيه يبحثون عن احتياج ثقافى وروحى ومعنوى . . لايكفى أن تكون مستهلكًا . . لابد من يقين . . من إيمان . .

أليس غريبًا أن يتحدث جون ميجور عن عقد اجتماع جديد؟ . . ويتحدث حزب العمال البريطانى عن إلغاء مجلس اللوردات . . وتنفجر الفاشية من جديد فى أوروبا . .

□ هل ثمة تشابه بين الوضع الذى كان قائمًا قبل ثورة ٢٣ يوليو والوضع الآن بعد أكثر من ٤٠ سنة ؟!

ـ لاأريد أن أقول تشابهًا . . ولكن طبيعة العصر أن كل مرحلة تضيف شيئًا ما وتغير قسمات ما ، وبالتالى من الصعب أن تقيس مرحلة على مرحلة .

وأنت موجود الآن ـ فى اعتقادى ـ فى مرحلة فى منتهى الخطر ، لاتقل فى نوعها عما كان قبل ٢٣ يوليو ، لكن ليست مثلها ، المسألة مختلفة .

□طيب الخروج من هذا المأزق فى ظل . . . . .

ـ اسمع . . يبدو أن البلد يواجه مأزقا لا يستطيع الخروج منه ، وأعتقد أن الحوار

الوطنى أكبر دليل على هذا المأزق . بمعنى ، هناك نظام حاكم وهناك معارضة ، إذا كان النظام الحاكم يملك رؤية للمستقبل : طيب ينفذها لأن لديه السلطة . إذا كانت المعارضة عندها حاجة ، طيب ما تقولها فى جرايدها ، لكن لا تملك شيئًا : كل واحد يريد أن يظهر إفلاس الآخر .

حكومة تقول للمعارضة : تعالوا صار لدينا حوار . والهدف أن يظهروا أن المعارضة لا تملك شيئًا لتقدمه . والمعارضة إما بتهرب بالمقاطعة أو تقدم ورقًا ، لكن واقع الأمر أن هناك حالة إفلاس عامة . نحن غير قادرين أن نرى العصر ولا قادرين نرى الدنيا ، ولا قادرين نرى الإقليم ولا قادرين نرى أنفسنا فى ظروف متغيرة حتى هذه اللحظة ، وبالتالى حوار كليهما يريد أن يورط الثانى فيه . . لقد كان لدينا تجربة فى هذا لما انقسمت الدولة شطرين بالانفصال : شمال فى سورية وجنوب فى مصر : قلنا نعمل مؤتمرا للقوى الشعبية حيث وجدتها . ووضعت أنا نظامًا للتمثيل وعملنا مؤتمرًا واسعًا ورؤية للمستقبل ، وكما قيل فى الميثاق عملنا حوارا وطنيا .

وسائلك العادية ، برلمانات ، حوارات ، صحافة تكفيك جدا فى إدارة الحوار فى ظروف طبيعية . لكن تلجأ لإجراء استثنائى من نوع مثل الحوار الوطنى لما تجد نفسك أمام موقف يتجاوز ما هو طبيعى لا تستطيع وسائلك التقليدية أن تفى بمقتضياته . لكن المشكلة أنك أنت دخلت ، لا أنت عندك حاجة ولا الآخرون عندهم حاجة . . فى تجربة الحوار الأولى دخل جمال عبد الناصر ولديه رؤية للمستقبل ، ميثاق وترتب عليه تنفيذ الخطة الأولى ونجحت نجاحًا باهرًا . والمسائل أفلست ووقفت بعدها .

□ وهل لديك تصور للمستقبل ، يعنى الحكومة لا تملك هذه الرؤية ولا المعارضة؟!

ـ أنت عندك مشكلة مستفحلة ، ويلزمك برنامج عمل . لايهمنى الصندوق ماذا يقول ؟ لكن أنا أسألك : أنت عندك مليون شركة ، وهى شركات ليس فيها مشكلة إلا أنه تنقصها السيولة . يعنى يحكى لى مصطفى خليل أن شركة السكة الحديد كان عندها مشكلة ، وهو عمل معها قرضًا من البنك العربى وأعطاها ٨٠ مليون دولار ، وهذه الشركة طلعت وعملت معجزة ، أنت عندك مثلها مئات الشركات . .

وأسال سؤالاً : ألا يستطيع النظام البنكى عندك وباحتياطياتك هات ٤ مليارات

من الــودائع وشوف الشركات ، أليس غريبًا أن عندك شركات تطرحها فى السوق فتطـلع أسهمها عشر مرات ؟! أسمنت السويس على سبيل المثال أعرف أناسًا اشترته بـ ٨ جنيهات ، اليوم أسمنت السويس بـ ٨٠ جنيها ، هذا يدل على أن الشركة باعت بعض الأسهم . . وأصبح عندها سيولة شغلت مصانعها والنتيجة باهرة . .

ألا يمكن أن نفكر ؟ خصخصة : أنا ليس عندى مانع ، لكن المشكلة أن الخصخصة هذه سوف تؤدى إلى أكثر من مشكلة : ١ ـ أن أى شخص مستعد يستثمر فإنه يفضل أن يشترى مصنعًا قديمًا موجودًا يشتغل فورًا ويوفر له فائدة على رأس ماله . أولاً شايف المصنع أمامه فى الصبح يأخذ إنتاجًا بدل مايقعد ٤ سنين ينتظر إنتاج المصنع . أقول إن أول خطوة تعملها أنك تشغل هذا البلد بكل طاقاته ، لابد من عمل برنامج قبل ما تفكر . أنا أعتقد أنك بكل طاقة صناعية وبنية ، وأنا أزعم أنه عندك من حجم هذه الطاقة ما يعمل فى هذه اللحظة بها يتراوح بين ٢٧ ـ ٣٢ ٪ وعندك ثلث طاقتك الصناعية الموجودة حاليًا والمتوافرة موجودة وأنت غير قادر على تشغيلها لأن هذه الشركات تعانى، ألا تستطيع أنك تعبئ البلد على مشروع للأمد القصير تقول فيه تشغيل كل الطاقة المصرية المتوافرة عندك ؟!

لكن لما أنت قاعد تتكلم لى عن المستثمرين ، كل مستثمر جاء عندك فى هذه اللحظة تعتقد أنه جاء ليأخذ حاجة ، لكن لو دخلنا اليوم فى مشروع قصير الأجل تحت عنوان : « خلى مصر تعمل » ، وبطلت الكلام الفارغ الذى تتكلم به عن فتح القطاع الخاص . . . تجربة العاشر من رمضان تجربة هائلة : وأنا موافق أنه يكون فيه مليون منها ، لكن الذى يحدث اليوم أنك أنت بالخصخصة تعيد توزيع الملكية من غير ماتزود الثروة . .

□ أستاذ هيكل . . هل كتب عبد الناصر مذكراته ؟!

ـ كتب وهو ضابط يومياته ، لكن ليست مذكراته ، فى حرب فلسطين لأنه كان أركان حرب الكتيبة فكتب يوميات الحرب وكتبها بخطه وهى عندى . كتب بعد ذلك مقابلات ، بمعنى إن كان هناك حاجات ، هو عادة كان عندما يقابل أحدًا ، وبعدما تنتهى المقابلة إما كان يملى على حد ، وإذا لم يفعل كان يقعد يكتب ملخصا للمقابلة ، فكتب . لكن هو كتب بخطه حاجات كثير كثير جدا . .

وهو كان من الناس الذين يحبون أن يفكروا كتابة ، لما كان لديه موضوع يشغله كان يقعد يكتب فيه ، دائماً كان يوثق المشكلة ، كان يقول نريد عمل كذا ، وكان يكتب الهدف ثم الخيارات الممكنة .

□ هل تظن أنه لو لم يكن جمال عبد الناصر قد قام بالثورة ، من كان سيقوم بها غير جمال عبد الناصر ؟!

ـ كان فيه عدة حاجات فى اعتقادى . وقتها كانت الحركة اليسارية شديدة جدا ، وحركة الإخوان المسلمين كانت شديدة جدا ، أغلب الظن كان من الممكن قيام انقلاب عسكرى أيضًا ، لكن انقلاب إما تدعمه أمريكا أو انقلاب قصر كى يستطيع الملك أن يؤلف حكومة عسكرية .

وأنا عارف إن تجربة نجيب الهلالى كانت آخر حكومة ممكنة لكن بعد ذلك كان الملك سيكلف حكومة عسكرية . .

□ هل هذا يفسر المقولة التى قالها الملك بعد ذلك أن الضباط الأحرار سبقونى بـ ٦ شهور؟ !

ـ لا أظن أنه كان يعنى بها أنهم سبقوه لأنه كان يريد القبض عليهم ، لأن قائمة المجموعة كانت تسربت له ، حتى أن إسماعيل شيرين بعدما أدى اليمين لتسلمه وزارة الحربية كانت أسماء الضباط محددة كلها لديه ، فهم سبقوه وقدموا الموعد لأن الموعد الأصلى كان المفروض ٢٥ أغسطس . .

□ كل الذين شاركوا فى ثورة يوليو حصل لهم انزواء ، ماعدا أنت . . لماذا ؟!

ـ الثورة فى واقع الأمر كان لها ٣ أجنحة مثل أى حاجة ثانية . هناك الفكرة والحلم والتنفيذ وأيضًا التأمين . . الفكرة والحلم كان يمثلها جمال عبد الناصر . وأنا أدعى أننى جزء من هذا كله ، بمعنى أننى لم يكن لى عمل تنفيذى ، وبالتالى الفكرة والحلم ممكن تنتظر وتستمر معها . التنفيذ عمله مجموعة مدنيين فى واقع الأمر . ثم هناك جناح التأمين سواء أمنه الداخلى أو أمنه الخارجى . لما جمال عبد الناصر اختفى بعدت الفكرة والحلم ، الجهاز التنفيذى الذى أعطيت له الحلم فى واقع الأمر لم يكن من الطبقة التى تريدها الثورة ، وهؤلاء دخلوا فى مشروع الثورة ، وفى واقع الأمر كان ضد هواهم الطبقى ، لأن الحلم والفكرة كانت بتدفعهم غصبًا عنهم .

أنت عندك جناح الفكرة كان فيه جمال عبد الناصر ، جناح التأمين تعود أن يعمل فى ظروف معينة مثل أى جهاز أمن دولة ، المشكلة التى حصلت فى حياة عبد الناصر أن جناح الأمن تصور أنه يعمل نوعًا من السياسة .

□ حضرتك وصفت مرة فشل جناح التأمين وأبرزه صلاح نصر بأنه كانت قوته متجاوزة بكثير ثقافته أو ضميره بهذا المعنى . . ؟!

ـ أول حاجة أنك أنت بتظلم المخابرات . وأريد أن أقول إن المخابرات المصرية عملت حاجة فى منتهى الأهمية . لكن هناك ماننساه ، وهو أن الناس فى السلطة يتعبون وتتجاوزهم الظروف أحيانًا ، عندما يحضر واحد مثل صلاح نصر أنا أعتقد أنه فى البداية أسس جهاز مخابرات كان هائلاً ، لكن لأن الرجل قعد فى السلطة أكثر من اللازم ، لما تشوف المجتمع باستمرار بكل خباياه تبتدى تتعب . .

تجربة شخصية ، أنا عمرى لم أخض فى الحاجات السرية والمكالمات ، لكن لما أصبحت وزير الإرشاد فى يوم من الأيام من ضمن اختصاص وزير الإرشاد الرقابة على التليفونات ، يأتى لى ورق أحمر يوزعونه على وزير الإرشاد لا أعرف لماذا . بالتحديد وفى أول يوم وجدت مدير مكتبى يحضر لى الورق الأحمر ، لما رجعت بعدها البيت أظن كان يوما من أصعب أيام حياتى لأننى لم أنم . ناديت مدير مكتبى ، وقلت له أنا لا أريد أن أرى هذا أبدا ، قد ما كنت « متسلى » به جدا لكنه أولاً بيشوه لك كل حاجة فى دماغك . .

الحاجة الثانية أنك حتى فى حمام مكتب وزير الإرشاد (وغيره عدد من الوزراء) خزينة لما رأيتها قلت تفتح الخزينة ويجرد ما بها ويعلن مكافآت للإشراف على الإذاعة والتليفزيون . .

الذى حصل مع صلاح نصر أنه رجل فوجئ أنه بيعرف أكثر من اللازم ، وأنه يملك السلطة أكثر من اللازم ، وأنه باق ومطمئن أنه لن يتغير .

□ وحدث التغيير .

ـ دائما يحدث التغيير.

٥

السّادات اجتهدَ ..فأخطأ !

- □ كنت أبتعد عن الموضوعية لو لم أتناول لون السادات فى «خريف الغضب»
- □ فى ١٩ ينـاير ١٩٧٧ سقـطت شرعية حكم السادات
- □ عبد الناصر قاوم الفقر ، والسادات فر منه إلى الأغنياء
- □ الزعماء العرب الذين يستسلمون لإسرائيل ، السادات أجبرهم على ذلك
- □ طلب منى تكذيب أن معاهدة إسرائيل تضمنت بنودا سرية ، ورفضت ، فقال: « إن شاالله عنك ما كتبت »
- □ أمامى كتب السادات فى الهواء : قررنا إلغاء الحقد الطبقى ، وعلى وزرائنا تنفيذ القرار .

فى موجة من موجات الغضب ، قال أنور السادات عن محمد حسنين هيكل : إنه «عنيد » . . « يضع رأسه برأسى » . . و « يريد أن يفرض علىّ آراءه » .

كان السادات قد أبعد هيكل عن « الأهرام » فى يوم الجمعة الأول من فبراير سنة ١٩٧٤ وعينه مستشارا لرئيس الجمهورية . واتصل عبد الفتاح عبد الله وزير شئون رئاسة الجمهورية بهيكل ليخبره بوجود خمس غرف جاهزة تنتظره فى الجناح الذى أعد له فى قصر « عابدين » . . لكن هيكل فاجأه قائلا : « إننى لا أنوى الذهاب إلى قصر عابدين ، وإنما أنا خارج من « الأهرام » إلى بيتى حتى أعثر على مكتب أعمل منه كصحفى وكاتب مستقل » .

وعلى باب « الأهرام » قال هيكل للصحفيين الذين كانوا فى انتظاره : « إننى استعملت حقى فى التعبير عن آرائى بصراحة ، والرئيس السادات استعمل سلطته فى إخراجى من الأهرام » .

فى ذلك اليوم ـ ومنذ أكثر من ٢٠ سنة ـ انفصل السادات وهيكل بعد علاقة استمرت حوالى ٢٥ سنة . . يقول هيكل : « لقد رأيت السادات أول مرة فى المحكمة . . متهما باغتيال أمين عثمان » . . كان ذلك فى يناير عام ١٩٤٨ . . ثم رأيته وجها لوجه بعد عامين فى بيت « يوسف رشاد » المطل على النيل بالجيزة . . « كنت ضيفا على العشاء مع آخرين ، وذهبت مبكرا بعض الشىء حتى أسمع من يوسف رشاد بعض ما يجرى ، وعندما دخلت وجدته جالسا مع شخص عرفت ملامحه على الفور من متابعة وقائع محاكمة قتلة « أمين عثمان » ، ومع ذلك فإن يوسف رشاد قدمه لى باسمه وتبادلنا حديثا عابرا ، ثم استأذن هو وانصرف » .

« ثم . . قابلت السادات فى مقر الفرقة الأولى مشاة فى رفح ، وقضيت يوما كاملا معه . . أصر على دعوتى للغداء . . ويومها عرض علىّ كتاباته لأرى ما إذا كان يمكن

نشرها فى مجلة « آخر ساعة » التى كنت أرأس تحريرها فى ذلك الوقت . . كانت الكتابات التى قدمها إلىّ فى ذلك اليوم مجموعة من القصص القصيرة تملأ دفترا كبيرا مكتوبة كلها بخطه . ثم قدم لى رواية طويلة عنوانها « أمير الجزيرة » . . مازلت أحتفظ بها حتى الآن . . بعد حوالى ٤٥ سنة .

بين يوم اللقاء ويوم الانفصال ، امتدت الجسور بين السادات وهيكل . . ثم قويت هذه الجسور بدعائم « موقفين » فرضا نفسيهما على التاريخ . . الأول هو ما جرى فى مايو عام ١٩٧١ . . حينما انحاز هيكل للسادات فى صراعه على السلطة مع من أسماهم «مراكز القوى » حتى انفرد بالسلطة . . وقد وصف السادات هيكل بأنه «مهندس» العملية . . والموقف الثانى هو ما جرى فى أكتوبر عام ١٩٧٣ . . حينما قرر السادات بجرأة تحسب له ، دخول الحرب . . وكان أن وجد هيكل جاهزا للمشاركة .

لكن . . الجسور التى قويت فى « الحرب » سرعان ما انهارت فى « التفاوض » . . وقد أوضح هيكل أكثر من مرة : « إننى اختلفت مع السياسة الرسمية للحكومة المصرية بعد حرب أكتوبر ، وكان اختلافى بالتحديد فى موضوع فك الارتباط الأول الذى وجدته من وجهة نظرى مؤديا بالحركة الذاتية للمواقف ـ إلى صلح منفرد مع إسرائيل ، كذلك كان اختلافى مع مجمل توجهات سياسة مصر العربية والخارجية ـ بما فيها الاعتماد الكامل على الولايات المتحدة الأمريكية . وإلى جانب ذلك ، فقد كنت واثقا بأن هذه التوجهات جميعا سوف تكون لها ـ على نحو أو آخر ـ تأثيراتها على السياسة الداخلية فى مصر » .

فى ذلك الوقت وصل هيكل والسادات إلى مفترق الطرق . . وباعدت بينهما السبل . . وقد اندفع السادات فى طريقه . . واختار هيكل . . طريقا آخر . . وراح يقدم شهادته على ما عاشه وما شارك فيه . . وهكذا . . قدم « خريف الغضب » . . «قصة بداية ونهاية عصر السادات » . . مستخدما أرشيف المؤرخ ، وأسلوبه الروائى ، وأسلحة ممثل الادعاء . . أو الاتهام .

فى يوم « خماسينى » حار ، خلعت فيه القاهرة ملابسها الشتوية ، رحت أسال هيكل سؤالا واحدا ، تفرع إلى دروب ومسالك : هل تغيرت رؤيتك للسادات بعد مرور

حوالى ٢٥ سنة على توليه السلطة وحوالى ١٤ سنة على رحيله ؟ . . إن تباعد السنين تنسينا التصرفات والمتاعب الشخصية ، وتجعلنا أكثر موضوعية فى تقييم عصر مضى وانقضى . . فهل حان الوقت لإعادة تقييم السادات بعيدا عن الهوى ؟

كان هيكل بملابسه الكاملة كالمعتاد ، يجلس وراء مكتبه ، وأمامه « طقم » شاى ، ونصف سيجار ، وريموت كنترول للتحكم فى ستريو الموسيقى الكلاسيكية التى تملأ المكان .

أكثر من ملاحظة أساسية بدأ بها هيكل كلامه ، وجدها مدخلاً ضروريا للحوار :

١ ـ إننا فى مصر نتسم بحساسية زائدة فى التعامل مع السياسة وخصوصا عند تقييم زعيم أو حاكم أو رجل دولة . . فإما أن تجد أنصار الرجل وقد قاوموا أية عملية تقييم دقيقة له ، وإما أن خصومه يجرونك إلى أبعد مما تريد .

٢ ـ نحن لا ننظر للشخصيات العامة نظرتنا للبشر ، فالشخص العام عندنا هو خليط من الفرعون والمملوك المستبد وأمير المؤمنين . . ويستحيل مع هذه النظرة تقييمه بطريقة منطقية . . إننا ننسى أن الشخص العام إنسان ، يخطئ ، ويصيب ، ويمرض ، ويدخل الحمام . . ونظرتنا الملتبسة للحاكم ترفعه إلى مصاف أنصاف الآلهة . . وهو أول من يصدق ذلك ، ولذلك ينقسم الناس حوله إلى مؤمنين أو كافرين . . ويصبح تقييمه يا أبيض ، يا أسود .

٣ ـ إننا نعتبر الموت ستارا يحجب عنا تقييم الحاكم ، عملا بقاعدة اذكروا محاسن موتاكم . . ومن يتجاوز هذه القاعدة يتهم بنبش القبور وانتهاك حرمة الموتى .

٤ ـ إن رفع الحكام إلى مصاف أنصاف الآلهة يجعل من الصعب إيجاد مفاتيح النفاذ إلى شخصياتهم ، ومن ثم تقييمهم . . فمن الصعب تقبل التحليل النفسى ، وظروف النشأة ، والبيئة ، والتعليم ، والثقافة ، والخبرة (وهى مفاتيح النفاذ للبشر) فى الدخول إلى شخصية الحاكم .

□ لكنك استخدمت هذه المفاتيح ـ يا أستاذ هيكل ـ فى النفاذ إلى شخصية السادات التى رسمتها فى خريف الغضب .

ـ نعـم . . وقد ووجهت بغضـب مـن بعض الناس . . أنا تناولت لون أنور

السادات . . وأنا مش أبيض . . أنا من الصعيد . . وعندى أصدقاء من إفريقيا . . ولست عنصريا . . ولا أتصور أن اللون نقيصة . . لكنى حاولت أن أجد فى اللون مفتاحا للنفاذ لأنور السادات . . كذلك حاولت استعمال مفاتيح النشأة والبيئة . . وهى مشروعة وعلمية . . كل واحد فينا ـ بما فى ذلك رجل السياسة ـ هو ذلك الطفل الذى كان . . وقد زعل البعض كذلك عندما تكلمت عن تأثير الفقر على السادات . . الفقر ليس عيبا . . وأنا لم أولد فى عائلة مليونيرات . . أنا من الطبقة المتوسطة . . القادمة حديثا من الريف إلى المدينة . . تصور البعض أننى « أعايره» . . وهو مالم يخطر ببالى . . أنا حاولت أن أفهم مكوناته بقدر ما أستطيع .

□ قيل . . إن خريف الغضب . . هو تعبير عن غضبك من السادات الذى هاجمك . . ثم فى النهاية وضعك فى السجن .

ـ لقد اختلفنا أنا والسادات فى فبراير ١٩٧٤ ، لكنه لم يعتقلنى إلا فى سبتمبر ١٩٨١ ، وقد تحمل أن أعبر عن رأيى وأنا فى بلدى . . وقد هاجمنى وأنا مواطن عادى ، وبذلك رفعنى من ناحية الأهمية العامة إلى مستوى رئيس الدولة . . خريف الغضب لم يكن غضبى أنا شخصيا . . أنا لم أكن غاضبا . . لكن مصر كلها هى التى كانت غاضبة بما فيها هو .

□ سنوات طويلة مرت على هذا الغضب الذى وصل إلى ذروته فى حادث المنصة . . والناس الآن أو بعض منهم يتحدثون عن رد الاعتبار للسادات . . ويرون أنه كان سابقا لعصره . . وعندما وقع الفلسطينيون والأردنيون معاهدة صلح مع إسرائيل ، وجدنا من يقول : ما كان من الأول . . فهل تشعر بالندم على بعض ما قلته فى خريف الغضب ؟

ـ فى كل مرحلة تعاد كتابة التاريخ كى نجد المبرر للحاضر . . وربما للمستقبل أيضا . . وإعادة النظر فى التاريخ عملية مستمرة فى كل الشعوب . . وأنا لا أشعر بالندم إطلاقا على أية كلمة قلتها فى خريف الغضب . . لأن الكتاب شأنه شأن الشهادة محكوم بزمن وبرؤية . . وفى وقته ، أعتقد أنى كنت منصفا . . ولست الآن نادما .

□ **تغير الزمن . . فهل تغيرت رؤيتك؟**

ـ للأسف . . مجرى السياسة ، ومجرى الأحداث أكدا أكثر ما كنت أقوله . . ماالذى فعله السادات ؟ إذا كان إعلان العجز عن المواجهة مع إسرائيل رؤية مبكرة ، فقد كان الملك عبد الله جد الملك حسين أول من أعلن ذلك ، ومن ثم كان يستحق ـ قبل السادات ـ جائزة نوبل . . ومن فضلك اعتبره شهيد السلام الأول . . وإذا تحدثت عن الانحياز للغرب . . من فضلك امنح هذا التقدير لنورى السعيد . . ماذا غير ذلك؟ . . الانفتاح : علينا أن ننظر إلى الصورة الاجتماعية فى مصر لنرى أين وصل الانفتاح !

وعندما نقول للفلسطينيين الذين وقعوا مع إسرائيل ما كان من الأول ، فنحن ندين السادات أكثر ، لأنه فصل مصر عن القوة العربية ، وعندما نطرح مصر من القوة العربية ماذا يتبقى للآخرين سوى الهرولة ؟

إن أى وطنى مصرى مخلص لايستطيع إلا أن يكون قوميا عربيا . . فحدودنا (سيناء شرقا والشلالات جنوبا والصحراء الغربية غربا) تجعلنا بلدا محاصرا . . قوته فى الانتماء والاندماج فى محيطه العربى . . وقد أخرج السادات مصر من حسابات القوة العربية . . ففتح الثغرات . . وأجبر الآخرين على الاستسلام . . وعندما يستسلم الآخرون تقول والله السادات كان على حق . . تعال قل لى فين السبب وفين النتيجة . . إن أكثر ما يثير مخاوفى ليس تقييم أنور السادات، وإنما تمرير السياسات . . إن السادات ينطبق عليه مقولة إنه رجل اجتهد وأخطأ .

تعال نقيم اختيارات السادات الأساسية . . خذ الفرق بينه وبين عبد الناصر فى موقف معين . . الفقر مثلا . . كلاهما عاش الفقر . . لكن عبد الناصر قاومه والسادات هرب منه ، وانضم إلى الأغنياء .

وتعال نرى إلى أين انتهت الآن نتيجة أعماله وسياساته وقراراته . . لاشك أننا أمة فى حال ترد . . وعلى رأس أسباب التردى ضياع الفكرة القومية . . الدور المصرى غـائب . . تستطيـع أن تقـول إنك زعيـم العـالم العـربى . . مجرد كلام بلا معنى . . بلا قيمة !!

الأوضاع الاجتماعية كما ترى . . ولك أن تسأل كيف تردت على هذا النحو ؟! إننا بعد هزيمة يونيو أكملنا بناء القطاع العام ، وأنفقنا الكثير على التجهيز للحرب ، وعلى تسليح الجيش ، وفى الوقت نفسه حافظنا على مستوى الأسعار ودعم السلع . . وجاء السادات ليتبنى سياسات مختلفة . . أنا مستعد أقول إن أهم ما آخذه على السادات هو ما فعله بالنظام الاقتصادى والاجتماعى فى البلد .

جاء فى سنة ١٩٧٤ ، وانتهج سياسات مختلفة . . أنا موافق أن الأمر كان يقتضى إعادة النظر . . بما فى ذلك الملكية العامة . . لكن . . ما حدث هو اتهام القطاع العام بالفشل ، وإهماله ، تمهيدا لهدمه أو بيعه . . إن التحول عن الشىء لايعنى اغتياله . . بل إعادة استعماله . . وهو ما تفعله الصين الآن ، وهى تُجرى تحولاتها الضخمة . . إن معدل نمو الصين ١٢٪ لأنها تركت التراكم يحدث ويتحقق ، وغيرت فقط فى أساليب العمل ، وفى أساليب الملكية ، وهو مالم ينتبه إليه السادات .

لقد ألغى السادات التراكم ، وتصور أنه من الأفضل أن يبدأ من الصفر . . متناسيا أن تراكم الثروة والخبرة هو حق من حقوق البلد لايجوز التفريط فيه .

□ لقد عاش السادات فى ظل عبد الناصر وأراد أن يتخلص من كل ما يذكره بتلك المرحلة ! !

ـ هذا أخطر ما فعله . . قطع عملية التراكم فى الخبرة السياسية وفى الثروة الاقتصادية . . وراح يبدأ بداية جديدة مهملا ما تم تكوينه فى حوالى ٢٠ سنة . . وما نعانيه اليوم هو نتيجة لما فعله السادات . . مثل الإرهاب . . الذى جاء بتحالف غير مقدس بين السادات وقوى أخرى ترفع فى السياسة أعلام الدين ، وكانت لها تجارب مريرة وقاسية مع كل نظام حكم فى مصر .

إن كسر التراكم هو أشد نقد يمكن أن يوجه للسادات . . لقد سألنى بعض المسئولين ذات يوم : هل عندى نسخة من اتفاقية القاهرة الخاصة بلبنان التى وقُعت فى سنة ١٩٦٩ ؟! . . لم يجدوا عندهم نسخة من الاتفاقية ، بسبب تبديد ملفات كثيرة فى وقت السادات .

قال وقد بدأ يكتب بأصبعه فى الهواء : أنا أنور السادات رئيس الجمهورية بناء على تقاليد الشعب المصرى وتقاليد القرية والعائلة المصرية قررنا ما هو آت . . يلغى الحقد الطبقى . . وعلى جميع وزرائنا تنفيذ هذا .

ثم التفت لى قائلا : فهمت يا محمد ؟!

قلت : الحقيقة أنى لم أفهم . .

القضية هنا أن السادات هرب من الواقع الاجتماعى ، فتجاوز شرعية وجوده فى السلطة . . إن شرعية النظام فى مصر من ١٩٥٢ ، حتى الآن ليست قائمة على الميراث أو الانتخاب . . شرعيته قائمة على ولائه الاجتماعى للأغلبية .

وعندما يقول عبد الناصر تحالف قوى الشعب ، ويريد أنور السادات أن يستبدل هذا التحالف لامانع ولا اعتراض . . ولكن لا تقل لى أخلاق القرية . . ولا تعد بى للعمدة ولشيخ الخفر . . ولشيخ البلد . . مش معقول . . هنا التراكم يضيع . . والهوية تلحق بالتراكم فى التيه .

☐ ألا ترى فى السادات أشياء إيجابية ؟!

ـ السادات على المستوى الإنسانى شخصية مثيرة فيها جوانب تستحق الإعجاب .

☐ فقط ؟!

ـ لا . . أنا أعتقد أنه جاء فى مرحلة ، البلد كان يلهث فيه ، وهو قد أعطى فرصة للأنفاس كى تهدأ ، وهو قد اتخذ قرارا فى منتهى الشجاعة ، وفى منتهى الأهمية ، قرار حرب أكتوبر ، وإن كان بعد الحرب قد قفز إلى مواقع أخرى مؤكدا بذلك مشكلتيه : معاداة التراكم والهروب المستمر .

☐ لو كان قراره فى أكتوبر يتسم بالشجاعة ، فهل كان قرارك بالوقوف إلى جانبه فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، قراراً شجاعا أيضا ؟!

ـ شجاعة السادات فى أكتوبر شجاعة غير طبيعية . . أما فى مايو فكانت شجاعة إجبارية لأنه كان يدافع عن نفسه . . رقبته كانت مهددة . . وقد واجه ظروفا داخلية فى

منتهى الصعوبة . . واجه مجموعات تريد أن تفرض تصورات معينة عليه ، أنا أعتقد ولاأزال أعتقد أنها خاطئة فى كل شىء . وكان يعتمد فى المواجهة على قوى كبيرة جدا تؤيده ، وكنت أنا واحدا من مؤيديه ، وكان لى دور رئيسى فيما جرى ، وهو قد وصفنى بأننى مهندس العملية ، وأنا سعيد بذلك .

فى أكتوبر كان على السادات أن يتخذ القرار بمفرده فى جو يمتلئ بالإحباط ، ولم يتصور أحد أنه سيتخذه . . وأنا أعتقد أن أحسن ما تجلى فيه هو هذا القرار ، وكان فى أفضل أحواله فى الفترة من ٥ سبتمبر حتى ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ . . كان يفعل كل ما فى وسعه .

☐ بعد حوالى ربع قرن على أحداث مايو . . هل كان ما جرى مؤامرة على السادات أو مؤامرة من تدبيره ؟!

ـ مشكلة السادات أنه جاء بعد شخصية تاريخية فى حجم جمال عبد الناصر . . والصدمة الأساسية مقالة كتبتها بعنوان : « عبد الناصر ليس أسطورة » . . قلت فيها إن غيابه جعل من الصعب على غيره أن يتحمل مسئولياته ، ومن ثم فالبديل هو إعادة تنظيم الخطوط وتدعيمها . كان هناك صراع سلطة . . نعم . . المشكلة أن البعض أراد استعمال ميراث جمال عبد الناصر ليكون قيدا على السادات يمنعه من الحركة . . وللإنصاف ، فإن ذلك كان من أسباب هروب السادات مما يمكن أن يفرض عليه باسم مرحلة معينة . . لكن . . كان عليه أن يفعل ذلك لفترة ما حتى يتأكد أن الأمور استقامت . . ومايسوقش فيها كما فعل !! وأحب أن أقول إننى اقترحت عليه دراسة متغيرات العصر وقدمنا ورقة المتغيرات . . كان على الناس أن تعلم أن أشياء كثيرة تغيرت ، وأنه حتى لو كان عبد الناصر موجودا لاستجاب لهذه التغيرات ، والتى كان بعضها مؤجلاً إلى ما بعد حرب التحرير . . كان لابد من إعادة النظر فى أمور كثيرة ، وهذا ليس عيبا . . لكن بشرط ألا يضر التغيير بميراثك ، ولا يبدد تراكم خبرتك .

☐ متى قابلت السادات آخر مرة ؟!

ـ فى شتاء ١٩٧٥ .

□ **لكن . . الاتصالات التليفونية بينكما لم تنقطع ؟!**

ـ تكلمنا فى التليفون معا كثيرا . . بعد اتفاقية فك الارتباط الثانى ، جاءنى إسماعيل فهمى وكنا فى الصيف . . فى كابينتى بالإسكندرية ، وقال لى : إن فيه هجوم شديد جدا على الاتفاقية ، وأن السادات طلب أنك أنت تتولى الرد . . قلت : كيف ؟! . . قال : هو طلب أن أعطيك صورة لما جرى . . وسألته : هل فى الاتفاقية تعهدات سرية؟! قال : لا . . ثم وقبل أن ينصرف رن التليفون ، وكان فوزى عبد الحافظ سكرتير السادات ، وقال : « الرئيس عاوزك » . . وجاء صوته طبيعيا ، وكأن شيئا لم يكن . . قال : أيوه يا محمد . . إسماعيل جالك ؟! . . قلت : ما زال عندى . . قال : « أنا مش عايز حد يدافع عنى أنا أقدر أدافع عن نفسى ، لكن مصر بتتهاجم يامحمد . . وعايزك تدافع عنها » .

قلت له : بالأمس كنت فى فندق فلسطين ، وقابلت بالصدفة جوزيف سيسكو وتناقشت معه فيما قرأته فى « هيرالدتربيون » عن البنود السرية ، وسيسكو أكد أنها موجودة ، وإسماعيل فهمى نفاها .

قال السادات : مفيش حَّاجات سرية .

قلت : لكنى قرأت عنها فى التربيون .

قال : محمد هل ستصدقنى أم ستصدق التربيون ؟

قلت : أصدقك أنت لكن الحقيقة أنا محتار .

قال : بلاش بلبلة . . حتكتب ولا مش حتكتب ؟! . . أنا باسأل سؤال واضح ومش عايز فيه بلبلة . . حتكتب ولا مش حتكتب ؟!

قلت : لأ مش حاكتب . .

قال : إن شالله عنك ماكتبت

ووضع السماعة .

□ **ثم تكلمتما معا مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن ؟!**

ـ نعم . . وكان ذلك بعد حوادث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ . . كنت فى بيتى الريفى فى « برقاش » . . وكانت التليفونات معطلة . . وفوجئت برئيس الحرس المرافق لسيد

مرعى العقيد شريف أمامى ، وقال إن رئيس مجلس الشعب (سيد مرعى) يريد أن يراك. فقلت له : البلد فيها حظر تجول . قال :أنا مع سيادتك . قلت : وأسرتى ؟ قال : نأخذها معنا . . قلت : لا أريد لأحد أن يعرضها لسوء ، غدا صباحا سأكون عندكم . . وفى الصباح وجدت مصطفى خليل وسيد مرعى يبحثان الموقف ، وقد اعتراهما القلق . وراحا يتحدثان عن تضافر القوى فى مثل هذه الظروف . . ومن جانبى شرحت وجهة نظرى . . وبعد قليل جاء حسن مرعى يطلب من سيد مرعى الذهاب لحجرة المكتب لأن الرئيس السادات على التليفون . . ثم طُلب منى أن ألحق بسيد مرعى ، وكان يشرح وجهة نظرى التى كنت أقولها قبل قليل . . وأعطانى سيد مرعى السماعة وجرى بينى وبين السادات الحوار التالى :

- أهلاً يا أفندم . . أتمنى ألا تكون متضايقا .

- هو ده ما كنت أقوله لك دائما يا محمد .

- إيه هو ؟

- مراكز القوى أهم اتحركوا

- اعمل معروف ، لا داعى لاستدعاء أشباح نسيناها .

- لا . . لا . . يا محمد

وبدأت أشرح وجهة نظرى الاجتماعية فى تفسير المظاهرات . وبعد أن انتهيت قال :

- ما فهمتش حاجة . . أنت جرالك إيه ؟ . . صديت ؟!

لم أعلق

- قال : عايزك تفكر . . وحنتكلم .

مساء نفس اليوم ولكن فى بيتى لقيت منه مكالمة أخرى ، قال فيها :

- أنا قلت لسيد (يقصد سيد مرعى) يعدى عليك يعرف أفكارك .

قلت له : الحكاية ليست حكاية أفكار . . القضية تشخيص ما حصل حتى نتوصل لعلاج مناسب . . وأنا شايف ما حصل هو ظاهرة اجتماعية .

قال : لا . . لا.

قلت : نحن بصدد اتجاهين للتفسير . . اتجاه اجتماعى واتجاه أمنى .

ورحت حوالى الساعة أشرح ما أعنيه ، وكاد السادات أن يقتنع بأن الأزمة اجتماعية . . ثم قال :

ـ أنا غداً سأجتمع بمجلس الأمن القومى . . وسأتصل بك قبل الاجتماع .

فى اليوم التالى عندما كلمنى قبل الاجتماع بدا قريبا من وجهة نظرى . . وكان ذلك فى الساعة العاشرة صباحا . . ولكن بعد الاجتماع وفى الساعة السادسة مساء ، مر على سيد مرعى ليقول لى : لا تضايق الرئيس ولا تلح عليه بما عندك . ثم كلمنى السادات وقال :

ـ محمد . . أنت عايزنى أصدقك وأكذب اللى شايفه قدام عينى .

قلت : إللى هو إيه ؟

قال : مؤامرة مفيش شك ، فيها شيوعيين والروس وكله وأنا مش واخد بالى . . أنا حاضرب . . فكرت . . فكرت يا محمد ؟

قلت : لقد قلت إن القضية قضية تشخيص ، والتشخيص هو الذى سيحدد العلاج . أما وقد وصلت لتشخيص أنا غير مقتنع به إذن الحل ليس بيدى وإنما بيد صاحب التشخيص .

قال : أنت عايز تفرض علىّ رأيك ؟

قلت : لا طبعا لكن أنا بأقول إن أحسن من يخدم سياسة ما هو من يقتنع بدواعيها . . أنا غير مقتنع بأنها مؤامرة . . أنا مقتنع أنها انفجار اجتماعى . . وإذا كان رأيى سليما يبقى العلاج اجتماعى . وإذا كان التشخيص أنها مؤمراة يبقى العلاج بالضرب ، وأنا لا أدخل فى الضرب . . فهو ليس من اختصاصى .

ـ قال : أنا كنت متصور أنك ستكتب الكلام الذى سأقوله . .

قلت : إذا كنا مختلفين ، فكيف سأكتب ؟

ـ قال : وقد استبد به غضب مفاجئ : طيب . . شاكر يا محمد . . كتر خيرك .

□ قلت أكثر من مرة إن مظاهرات الطعام فى يناير ١٩٧٧ طاردته وأرقته ودفعته للهروب ، ومن ثم كانت زيارته للقدس .

ـ السادات أقام مجده على حرب أكتوبر ، لكن هذا المجد اهتز فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ عندما حدث انفصال بينه وبين الناس . وأنا أعتقد أنه فى ١٨ و١٩ يناير انتهت شرعية حكمه . . فى أى حكم فى العالم الثالث ستجد خطوطا دفاعية . . أول هذه الخطوط مصداقيته عند الناس ، ثم قدرة وسائله الإعلامية ، ثم قوى الأمن . . عندما يلجأ النظام للقوات المسلحة كى يضرب الناس . . تنتهى الشرعية . . ولقد أسفر حظر التجوال فى أحداث ١٨ و١٩ يناير عن ١٧٨ قتيلا فى الشوارع .

□ القفز لإسرائيل هل هو فقط نتيجة لما جرى فى ١٨ و ١٩ يناير ؟

ـ جزء كبير منه .

□ لماذا لا تفسر هذه الخطوة على أنها شجاعة وبعد نظر ؟

ـ هل حدث مثل ذلك فى تاريخ أى صراع ؟ . . الناس رحبوا بهذه الخطوة فى الغرب . . لكنها كانت هروبا من الواقع . . أنت عندك مليون طريقة للسلام . . وقد اقترح إسماعيل فهمى عمل اجتماع فى البيت الأبيض يحضره رؤساء دول الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن ، ومع مصر وإسرائيل ، وباقى دول الصراع . . وهى فكرة معقولة .

□ هل تختلف على الأسلوب أم على النتائج ؟

ـ هل توصلنا إلى سلام ؟ . . كيف ؟ وهناك قوة نووية تهددك ؟أنا موافق أن الأسلحة النووية لا تستخدم إلا فى حالات لايمكن تصورها بالعقل ، لكن لايمكن تجاوز الخيارات السياسية التى يفرضها وجود السلاح النووى . . السلام فصم قوة مصر من محيطها العربى . . وساهم فى تردى أحوال العالم العربى . . غياب عن لبنان . . علاقة سيئة مع السودان . . تونس غير مرحبة بدخولك الاتحاد المغاربى . . وحتى هذه اللحظة لا تعرف مصير حوالى ٦٠٠ ألف مصرى فى العراق . . وسايب إسرائيل تطيح فى إيران . . افرض أن عندها تكنولوجيا نووية . . ما المانع ؟ إيران عندها ٣ مفاعلات

اشتراها الشاه كانت معطلة وتحاول تشغيلها . . ولا أعتقد أنها قادرة على التعامل مع البلوتونيوم . . كل ما عندك من تكنولوجيا نووية فى المنطقة يُدمر . . غير مسموح لك به . . معظم ما نعانى منه هو حصاد لاندفاعات سريعة ومتقلبة داخليا وعربيا وعالميا .

□ كيف تلقيت خبر مصرع السادات؟

ـ تـأثرت . وبكيت . . أنا عندى ضعف إنسانى شديد تجاه السادات . . لقد خضنا معا أحداث مايو وأكتوبر . . واختلفنا فى قضية سياسية . . وقد اقترح أن أكون مستشارا ونائب رئيس وزراء ورئيس ديوانه ، لكننى اعتذرت ولم أجد فى أى من ذلك دورى أو نفسى .

□ قال السادات : إنك تريد أن تحكم مصر ؟

ـ يا ساتر . . مرة كنا فى برقاش وكان السادات وسيد مرعى وعائلاتنا . وقدم السادات منشورا موقعا باسم « ناصريون هيكليون » وكان ذلك بعد سنة من أحداث مايو . وقدم السادات ـ الذى كان جالسا تحت شجرة أكاسيا ـ المنشور لى قائلا :

ـ شفت الكلام ده يا محمد .

قلت : إيه الكلام ده ؟

قال : دول ناس بيقولوا إن أكتر واحد يقدر يكمل بعد عبد الناصر هو هيكل

قلت له : ده شغل مباحث .

□ لم تغير السنوات وجهة نظرك يا أستاذ هيكل ؟

ـ للأسف أكدتها ، ومع ذلك فإننى حين أتذكره كرجل أتذكر أحسن ما فيه . فخلافى معه خلاف رأى ورؤية وليس كراهية أو عداء . . وأقول لك أكثر إننى فى بعض المرات أحاول جاهدا أن أبحث عن أعذار . . وأروح أقرأ وأقرأ فى الوقائع وفى الوثائق وأقول لنفسى مقطعا من بيت شعر يقول : لعل لهم عذرا وأنت تلوم !

المحتويات

رقم الإيداع : ٨٥٠٤/ ٩٥
I.S.B.N. : 977 - 09 - 0310 - 8

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣